منصة بناء العلمية
تأصيل وتسهيل

سورة الكهف

وقفات وهدايات

دروس ألقاها

خالد بن عبد العزيز الباتلي

نسخة معتمدة من الشيخ – حفظه الله –.

جميع الحقوق محفوظة لمنصة بناء العلمية. ويُسمح بتداوله ونشره للأغراض الدعوية، بشرط عدم الزيادة أو الحذف.

النشرة الأولى || ذو القعدة ١٤٤٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد ..

فإن العلم حياة القلوب، ونور البصائر، وأفضل العلم: العلمُ بكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الهادي إلى أقوم طريق في العقائد والعبادات والسلوك، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ثم إن مما يحفِّز ويُبشِّر: أن مدارسةَ معاني القرآن علامةٌ من علامات الخيرية.

عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(١).

يظنُّ بعض الناس أن هذا الحديث في تعلُّم ألفاظ القرآن وتعليمها فقط، والواقع أن الحديث يشمل الأمرين: الألفاظ، والمعاني، بل المعاني أولى.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتعلُّم القرآن وتعليمُه يتناول تعلُّم حروفه وتعليمها، وتعلُّم معانيه وتعليمها، وهو أشرف قِسمَي تعلُّمه وتعليمه؛ فإنَّ المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه»(٢).

فنحن هنا نتعلم ونتدارس معاني القرآن، ونرجو أن نُتَوَّج بتاج الخيرية.

وقبل الكلام على النصاب الأول من السورة، ربما يقول قائل:

لماذا بدأنا بسورة الكهف؟

والجواب: وقَعَ الاختيار على سورة الكهف لأسباب:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٧).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٧٤).

(١) هي السورة التي نقرأها كل جمعة - وأغلبنا يحفظها بإتقان -؛ فلا بُدَّ أن تكون قراءتنا لها بالتدبر والتفهم.

(٢) هذه السورة ترسم منهج التعامل مع الفتن:

الفتنة في الدين: (قصة أصحاب الكهف)، **فتنة الصاحب والجليس**: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[الكهف:٢٨]، **فتنة الدنيا- المال والولد -**: (قصة صاحب الجنتين)، **فتنة العلم**: (قصة موسى والخضر)، **فتنة السلطة والمنصب**: (قصة ذي القرنين).

فتنٌ متنوعة، فلا عجب أن كانت هذه السورة عاصمةً من أعظم الفتن.

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آياتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ**»(١).

ففي خِضَم هذه الدنيا وما فيها من فتن ومكدِّرات، وصوارفَ وملهيات، نحن بحاجة أن نأوي إلى كهف يُظلُّنا، فكانت **سورة الكهف** هي ذلك الكهف الذي نأوي إليه في كلِّ أسبوع سائلين الله أن يؤتينا من لدنه رحمة، ويهيِّئ لنا من أمرنا رشدًا، ويعيذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

(٣) هي سورةُ قَصص، والقَصصُ مُحبَّبة إلى النفس، فيها قصص: أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وآدم وإبليس، وموسى والخضر، وذي القرنين.

- وسيكون منهجنا بتقسيم السورة إلى مقاطع، ثم الكلام على كل مقطع في وقفات، وهي وقفات هدايات وتأملات من وحي السورة، وليس تفسيرا لها بالمعنى الاصطلاحي للتفسير.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨٠٩).

نسأل الله الفقه في كتابه، والعمل به، والدعوة إليه على بصيرة، والصبر على ذلك كله .. آمين

المقطع الأول

من أوَّلِ السورة، إلى قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

والكلام عليه في الوقفات الآتية:

الوقفة الأولى: الحمد لله.

الحمد: هو وصفُ المحمود بالكمال، مَحبَّة وتعظيما.

وهو بخلاف المدح الذي لا يلزم معه المحبة والتعظيم، فقد يمدح الإنسان شخصا وهو يبغضه لكن طلبا لمنفعة، أو خوفا من مضرة.

وافتتح الله كتابه بالحمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وافتتح خمس سور بالحمد (الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر). واستحقاق الحمد فيها جاء على جليل الأمور وعظيمها: من إثبات الربوبية، والخلق، وإنزال القرآن، وتمام الملك والتدبير.

ومن أسمائه - تعالى -: الحميد.

الفائدة المسلكية هنا: أن نكثر من حمد الله - تعالى -، فـ«**الحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ المِيْزانَ**»(١)، كما قال رسول الله ﷺ.

• • •

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٣).

الوقفة الثانية: أوصاف القرآن.

قال الله – تعالى –: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١-٢].

جاء في هاتين الآيتين وصفان للقرآن:

(١) أن القرآن مستقيم غاية الاستقامة، لا عِوَجَ فيه.

(٢) أنه نذير وبشير.

وقوله – تعالى –: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ يحتمل أن تعود على الكتاب أو على عبده ﷺ، وكلاهما صحيح من حيث المعنى. لكن السياق يشير إلى عَوْدِهِ على الكتاب، فهذا القرآن ينذر الكافرين والعصاة، ويبشر المؤمنين.

الفائدة المسلكية هنا: أن نلزم هذا القرآن ونهتدي به؛ لأنه قيِّم لا عوج فيه، وأن نسعى في تحقيق الإيمان والعمل الصالح؛ للفوز بالأجر الحسن، والنعيم الأبدي.

●●●

الوقفة الثالثة: تنزيه الله عن النقائص.

التسبيح مَعْلَمٌ ظاهر في الدِّين، وهو ذِكرٌ عظيم، ومعناه: تنزيه الله عن كلِّ نقصٍ وعيب.

ومن أعظم النقائص والعيوب، وأنواع الكفر: نسبة الولد إلى الله – تعالى –!

قال الله – تعالى –: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٤-٥]. فنسبة الولد إلى الله فرية عظيمة، وكلمة شنيعة، أبطلها الله بأشد العبارات في كتابه.

وقال – تعالى –: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨-٩٢].

هذه الكلمة اشترك فيها: اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، وبعض المشركين الذين قالوا: الملائكة بنات الله.

فهؤلاء أطلقوا هذا الكذب بلا علم عندهم، ولا عند آبائهم.

وجاء إبطال هذا القول من ثلاثة أوجه:

(١) أنه قولٌ لا دليل عليه.

(٢) تعظيم هذا القول واستشناعه: ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾.

(٣) الحكم بأنه كذب بأسلوب النفي والاستثناء: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾.

الفائدة المسلكية هنا: أن نعظِّم ربَّنا في قلوبنا، ونلهج بالتسبيح والتنزيه له.

●●●

الوقفة الرابعة: العبرة بالعمل دون الأثر.

هذه قاعدة دعوية، ترشدنا أن نهتم بالعمل بنشاط وهمة، ولا تؤثر علينا النتائج. فحينما تسلك عملًا دعويًّا كتعليم قرآنٍ أو علم أو نشر للخير، فالنتائج قد تكون:

- **مُبهرة**، فهذه تسرُّ ولا تغرُّ. احمد الله، ولا تعجب بعملك.
- **محبطة**، فلا تُقعِدْك عن العمل، ولا تقتل نفسك غمًّا وهمًّا وأسفًا.

قال الله – تعالى –: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦]، أي: لعلك مُهْلِك نفسك حزنًا وأسفًا إن لم يؤمنوا بهذا القرآن، فلا

تفعل، فليس عليك هدايتُهم، وإنما عليك البلاغ. وقال – تعالى – أيضا: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨].

إن الغمَّ والأسف الذي يجده بعض الدعاة حينما يرى ضعف أثرِ دعوته؛ ينعكس سلبًا على مهمته، حيث تضعف قواه، وتتأثر نفسيته، فيفقد الدافعَ والمحرِّك للعمل.

فمثلًا: حينما تبدأ في حلقة تعليم ثم لا ترى إقبالًا، أو ترى ضعفًا وعدم حماس، أو حينما لا ترى تفاعلًا مع منشوراتك الدعوية = فلا تُهلِك نفسك حزنًا وأسفًا، فأنت تعمل لله، والله يراك ويعلم عملك، ويريد منك أن تعمل، وليس عليك النتائج.

مكَثَ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ألف سنة إلَّا خمسين عامًا وما آمنَ معه إلا قليل، ويأتي النبيُّ من أنبياء الله يوم القيامة وليس معه أحد!

فمقياس النجاح عندنا ليس بالأثر الظاهر، وإنما نحن مطالبون بالعمل، والنتائج ليست إلينا.

الفائدة المسلكية هنا: أن نعمر أوقاتنا بالعلم والعبادة والدعوة، والنتائج أمرُها إلى الله.

●●●

الوقفة الخامسة: التحذير من فتنة الدنيا.

من منهج القرآن الذي يَحسُن أن نتلمَّسه ونحن نتلو الآيات: تصحيحُ منهج النظر والفكر. قال الله – تعالى –: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧-٨] .

كل ما تراه من زينة وجمال وبهرج وزخرف، أبراج وأسواق وقصور، سيارات وطائرات، مجوهرات وتُحَف وأجهزة، وغير ذلك، كله سيفنى ويذهب، وتصير الأرض جرداء.

كلُّ هذا امتحان وابتلاء، مآله إلى الزوال والفناء.

تأتي هذه الآية تمهيدًا لقصة أصحاب الكهف لتصحيح القيم والمبادئ، لتقول لنا: كهفٌ مظلم في جبلٍ موحش **مع الإيمان**؛ خيرٌ من قصرٍ مشيد فاخر **مع الكفر والضلال**.

هكذا يُصنع الوعي، وهكذا يُهذَّب الفكرُ والنظر.

●●●

الوقفة السادسة: قصة الكهف.

جاءت القصة مرتين، إجمالا ثم تفصيلا.

الإجمال في أربع آيات، قال الله – تعالى –: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف: ٩-١٢].

ثم جاء التفصيل بعدها مباشرة، بدءا من قوله – تعالى –: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣].

وقصص القرآن أحسن القصص. وهي قسمان:

(١) قصص الأنبياء.

(٢) قصص غير الأنبياء، ومنها قصة أصحاب الكهف.

- **ومن الدروس والعِبر في هذه القصة:**

أولا: دينُك أعزُّ ما لديك.

فهؤلاء الفتية تركوا حياة المدينة والراحة، ولجؤوا إلى كهف مظلم في جبل موحش، فرارا بدينهم، وصيانة لعقيدتهم وإيمانهم. عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**بادِرُوا بِالْأَعْمالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيا**»(١).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**خالِطِ النَّاسَ، وَدِينَكَ لا تَكْلِمَنَّهُ**»(٢).

ثانيا: نعمة الربط على القلب.

الربط على القلب نعمة عظيمة، ومددٌ من الله - تعالى -، وقد ورد في القرآن ثلاث مرات(٣).

ومعناه: تقوية القلب بالصبر والثبات، والسكينة والطمأنينة.

فهؤلاء الفتية ربط الله على قلوبهم، وأمدهم بمدده وعونه.

وبعض الناس يصاب بكُرَبٍ ومصائبَ شديدةٍ في حياته، لكن ينزل الله عليه الثباتَ والصبر، ويفيض على قلبه الطمأنينةَ والرضا، وهكذا يكون الربط على القلب.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١١٨).

(٢) أخرجه وكيع في الزُّهد (٥٣١)، بإسناد صحيح، وعلقه البخاريُّ في صحيحه (باب الانبساط إلى الناس، ٨/ ٣٠)، مجزوما به.

(٣) الموضعان الآخران - في غير سورة الكهف -: في قول الله - تعالى -: ﴿**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [القصص:١٠]، وقوله - تعالى -: ﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ**﴾[الأنفال:١١].

وهو لطفٌ من الله اللطيف، كيف صار الكهفُ الموحش القفرُ فضاءً ورحمة وراحة!

ثالثا: تقرير الألوهية بالربوبية.

وهذا أسلوب قرآني في تقرير توحيد العبادة. وشاهِدُه في قول الله - تعالى -: ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف:١٤].

رابعا: التعلق بالله وحسن الظن به.

وهذا باب عظيم من أبواب الإيمان، تأمَّل قولهم: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف:١٦]، وقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

إن هذا درس ورسالة لكل مكروب، ومُضيَّقٍ عليه في دينه، وغريبٍ في بلده وبين أهله أن يتوجه إلى ربه في ضراعة مع إخبات، وابتهال مع إقبال: أن ينشر له رحمته، ويوسع عليه ضيقه، ويفتح له أبواب الخير والنفع والفرج.

أَلا فاصْبِرْ عَلَى الْحَدَثِ الْجَلِيلِ ... وَداوِ جَواكَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ

وَلا تَجْزَعْ فَإِنْ أُعْسِرْتَ يَوْمًا ... فَقَدْ أَيْسرتَ فِي الزمن الطَّوِيلِ

وَلا تَظْنُنْ بِرَبِّكَ ظَنَّ سَوْءٍ ... فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ[1]

خامسا: لطف الله وكرامته بأوليائه.

وظهر هذا في عدة أمور ومشاهد من القصة، من أعظمها هذه الكرامة العظيمة بهذه النومة الطويلة، وما هيأ لهم من الأسباب في حفظهم وصيانتهم.

(١) «الفوائد المنتقاة والغرائب الحسان» (ص: ٥٣)، والأبيات تنسب لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَكَـــمْ للهِ مِـــنْ لُطْـــفٍ خَفِـــيٍّ ... يَـــدِقُّ خَفـــاهُ عَـــنْ فَهْـــمِ الـــذَّكِيِّ
وَكَـــمْ يُسْـــرٍ أَتَـــى مِـــنْ بَعْـــدِ عُسْـــرٍ ... فَفَـــرَّجَ كُرْبَـــةَ القَلْـــبِ الشَّـــجِيِّ
وَكَـــمْ أَمْـــرٍ تُســـاءُ بِـــهِ صَـــباحا ... وَتَأْتِيْـــكَ المَسَـــرَّةُ بالعَشِـــيِّ
إذا ضـــاقَتْ بِـــكَ الأَحْـــوالُ يَوْمـــا ... فَثِـــقْ بالواحِـــدِ الفَـــرْدِ العَـــلِيِّ[1]

سادسا: الأخذ بالأسباب.

حيث فروا بدينهم، ولجأوا إلى كهف يؤويهم، ولم يواجهوا قومهم لعدم قدرتهم على ذلك.

سابعا: الاستناد على العلم والبرهان.

وهذا منهج قرآني سلفي، يظهر هنا في قول الله – تعالى –: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ﴾ [الكهف:٤-٥]، وقوله – سبحانه –: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥].

فوطِّن نفسَك – يا طالب العلم – أن تأرِز[2] إلى الكتاب والسنة، وتنهل منهما، وإياك أن تقدم عليهما رأيًا فقهيًّا أو بحثًا جدليًّا أو خيالًا صوفيًّا أو تناقضًا كلاميًّا فلسفيًّا.

●●●

(١) «معجم الأدباء» (٣ / ٩٩٦)، والأبيات للحسن بن محمد بن الحسن بن حبيب.

(٢) أَرَزَ إلى المكان: لجأ إليه. ينظر: «لسان العرب» (٥/ ٣٠٥).

الوقفة السابعة: التدرُّب على تنمية مَلَكة الاستنباط.

نرى أن الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ استنبط سبع فوائد من آيتين، من قوله – تعالى –: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ...﴾ [الكهف:١٩]، إلى قوله – سبحانه –: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠].

والاستنباط: استخراج ما خفي من النص بطريق صحيح.

وهذه مَلَكة يفتح الله بها على من يشاء من عباده، ولها أسباب، منها: التدرب والممارسة، ومنها: معرفة أنواع الدَّلالات، وإحكام علوم اللغة وأصول الفقه.

الوقفة الثامنة: توجيه الاستدلال بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

هذه مسألة إثرائية؛ فإنَّ هذه الآية من أشهر أدلة القبوريِّين، ووجه الدلالة فيها – عندهم –: أن قوله –تعالى–: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]، معناه: لنتخذنَّ على قبرهم مسجدا للعبادة. وشرعُ مَن قبلنا شرعٌ لنا، وقد حكاه الله – تعالى –، ولم يعقبه بما يدل على رده وإنكاره، مما يدل على رضا الله وإقراره لعملهم.

والجواب على هذه الشبهة من وجهين:

(١) على التسليم بأن شرع مَن قبلنا شرعٌ لنا، فهو **مقيد** بما إذا لم يَرِدْ شرعُنا بخلافه، وقد جاء شرعنا بإبطال ذلك في نصوص كثيرة، فيها: النهي واللعن والحُكم بأنهم شرار الخلق يوم القيامة، أعني: من اتخذ القبور مساجد.

(٢) لا يُسلَّم بأن ذلك شرع لهم – أيضا –؛ إذ ليس في الآية دلالة على أن ذاك المذكور كان شرعًا لهم، بل غاية ما في الآية أن جماعة من الناس قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم

﴿مَّسۡجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]، وليس في الآية تصريحٌ بأنهم كانوا مؤمنين. وعلى التسليم بأنهم مؤمنون، فلا يلزم أنهم كانوا صالحين يقتدى بهم.

بل جعل ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية دليلًا على المنع، فقال: «وقد دلَّ القرآن على مثل ما دل عليه هذا الحديث، وهو قول الله - عز وجل - في قصة أصحاب الكهف: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]، فجعل اتخاذ المساجد على القبور مِن فِعل أهل الغلبة على الأمور، وذلك يُشعر بأن مستنده القهر والغلبة واتباع الهوى، وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل المنتصر لما أنزل الله على رسله من الهدى»(١).

وجاء ذلك بعد قوله - تعالى -: ﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]، فهناك تنازع بين طرفين، ولا بُد في التنازع من الاختلاف والانقسام.

(١) «فتح الباري»، لابن رجب الحنبلي (٢/ ٣٩٧).

المقطع الثاني

من قول الله – تعالى –: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، إلى قوله – سبحانه –: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

والكلام عليه في الوقفات الآتية:

الوقفة الأولى: الانشغال بالعلم النافع.

ذكر الله عن بعض الخائضين في قصة أصحاب الكهف أنهم اختلفوا في عدد أصحاب الكهف، فقال بعضهم: «ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ»، وقال آخرون: «خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ»، وقال قوم: «سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ»، وتطلَّب بعض من تكلم عن القصة تفصيلات لا فائدة منها: كلون كلبهم، ونوع طعامهم، وغير ذلك من الأمور التي أُبهمت، ولا فائدة من معرفتها.

الفائدة المسلكية هنا: أن ننشغل بالعلم النافع.

ولكن ما هو العلم النافع؟

الجواب: الكتاب والسنة، بضبط نصوصهما وفهم معانيهما، والاستعانة على ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان من أهل العلم والدين.

فمن وُفِّقَ لذلك بإخلاص وصدق، ثم اجتهد في العمل بعلمه، وسعى في بثِّ هذا العلم ونشره = فقد ارتقى مرتقًى عظيما في الدين.

وليس العلم بكثرة الكتب، ولا بالشهادات، ولا بالألقاب.

قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَن تعلَّم وعَمِل وعَلَّم فذلك الذي يُدعى عظيما في ملكوت السماوات»(١).

قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا أعلم بعد النُّبوة درجةً أفضل من بث العِلم»(٢).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «من تعلَّم العِلم الذي بعث الله به رُسُلَه وعَلَّمَه لوجه الله كان صدِّيقا»(٣).

وأشارت الآية إلى مَعْلَم من معالم الطرح العلمي، وهو **الجدال في العِلم**.

والجِدال والجَدَل: منازعة الخصم للتغَلُّب عليه(٤).

وينقسم الخصام والجدال في الدِّين إلى قسمين:

الأول: جدال محمود:

وهو كل جدال أيَّدَ الحقَّ أو أوصل إليه، بنِيَّة خالصة وطريق صحيح. ويكون بالحسنى؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وهذا النوع مأمور به: إمَّا وجوبًا، وإمَّا استحبابًا، بحسب الحال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومن أمثلته: مجادلة ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا للخوارج، حيث رجع منهم عدد كبير(٥).

---

(١) «حلية الأولياء» (٦/ ٩٣).

(٢) «شعب الإيمان» (٣/ ٢٦٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٧١).

(٤) ينظر: «لسان العرب» (١١/ ١٠٣).

(٥) ينظر: «السنن الكبرى»، للنسائي (٨٥٢٢)، و«المستدرك»، للحاكم (٢٦٥٦).

الثاني: جدال مذموم:

وهو كل جدال خالف الصواب في مقصده أو طريقته.

كمن يجادل؛ نُصرةً للباطل، أو انتصارًا للنفس، أو على غير علمٍ وبصيرة، فهذا قبيحٌ منهِيٌّ عنه؛ لقول الله - تعالى -: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

وقال تعالى - هنا -: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ [الكهف: ٢٢].

أي: فلا تجادل - في عددهم، ولا في غيره من أحوالهم- أهلَ الكتاب ولا غيرهم إلا جدالا ظاهرا لا عُمقَ فيه، بأن تقتصر على ما جاءك من الوحي فيهم.

والاسترسال في الجدال العلمي المذموم تراه اليوم في عالم «الإنترنت» ومواقع التواصل التي أتاحت الكتابة والكلام لكلِّ مَن هبَّ ودَبَّ. ومن آفات هذا الجدال العلمي المذموم:

(١) تضييع الزمان الشريف في ما لا فائدة فيه.

(٢) إثارة الإحَن والحزازات في النفوس، وتعكُّر صفاء المودَّة بين الإخوان.

فكثيرًا ما يحصل نقاش بين بعض الأصحاب، لكن يخرج النقاش عن مسار الحوار الهادئ إلى جدال ترتفع فيه الأصوات، فيحضر الشيطان، ويتفرق الحضور بنفوس غير التي دخلوا بها.

ويُذكَر عن سليمان بن داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال لابنه: «يا بني، إياك والمراء؛ فإن نفعَه قليل، وهو يهيج العداوة بين الإخوان»[1].

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٧٠).

الفائدة المسلكية هنا: أن ننشغل بالعلم النافع، وندع ما لا فائدة منه، فالإسلام يصون العقل أن تهدر طاقته، ويُشغلَ فيما لا فائدة فيه.

وإذا احتاج الأمر إلى نقاش فليكن فيما يفيد، وبأسلوب حسن.

الوقفة الثانية: التحرُّز في الاستفتاء.

الفتوى: بيان الحكم الشرعي. وهي توقيع عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمقامها خطير.

ونقرأ هنا أن الله - تعالى - قال لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]، ﴿فِيهِم﴾، أي: في أهل الكهف. و﴿مِّنْهُمْ﴾، أي: من أهل الكتاب، أو من غيرهم.

الفائدة المسلكية هنا: أن نتحرَّى ونتأنَّى عندما نستفتي في أمر يعرِض لنا من أمور الدين.

فإنَّ المرء إذا أراد أن يبني بيتًا بحث عن المهندس الحاذق، وإذا أراد أن يعالج مرضه بحث عن الطبيب الحاذق، وإذا أراد أن يصلح سيارته بحث عن العامل المتقن لعمله، أليسَ الدينُ أولى وأهمَّ؟!

ما أحسن قول محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ هذا العِلم دينٌ؛ فانظروا عمن تأخذون دينكم»(١).

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المفتي قائم في الأُمَّة مقام النبي ﷺ»(٢).

فمن انتصب لهذه المهمة وهو غير مؤهل؛ فقد عرَّضَ نفسه وغيره لخطر محدق.

قال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذه الآية ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾: «فيها دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى، إمَّا لقصوره في الأمر المُستفتى

---

(١) «صحيح مسلم» (١/ ١٤).

(٢) «الموافقات» (٤/ ٢٤٤).

فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلَّم به، وليس عنده ورع يحجُزه. وإذا نُهي عن استفتاء هذا الجنس، فنهيه هو عن الفتوى، من باب أولى وأحرى»[1].

قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي للإمام أن يتصفَّح أحوال المفتين، فمن صلح للفُتيا أقرَّه، ومن لا يصلح منعه ونهاه وتوعَّدَه بالعقوبة إن عاد»[2].

وذكر ابن القيم - في أعلام الموقعين - عن شيخه ابن تيمية رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ أنه كان شديد الإنكار على هؤلاء، فاعترض عليه أحدهم، وقال: أجُعِلْت محتسبا على الفتوى؟ فقلت له: يكون على الخبَّازِين والطبَّاخِين محتَسِبٌ ولا يكون على الفتوى محتسب؟![3].

الوقفة الثالثة: تعليق الأمور المستقبلة بالمشيئة.

هذا أدب من آداب العبد مع ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. قال ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فنهى الله أن يقول العبدُ في الأمور المستقبَلية: إني فاعل ذلك غدا، من دون أن يقرنه بمشيئة الله؛ وذلك لما فيه من المحذور، وهو الكلام على الغيوب المستقبَلية، التي لا يدري العبد هل يفعلها أم لا؟ وهل تكون أم لا؟ وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالا، وذلك محذور ومحظور؛ لأن المشيئة كلها لله، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، ولِما في ذكر مشيئة الله من تيسير الأمر وحصول البركة فيه، والاستعانة من العبد لربه»[4].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٧٣).

(٢) «آداب الفتوى والمفتي والمستفتي» (ص: ١٧).

(٣) «أعلام الموقعين» (٤/١٦٧).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٧٤).

- **وبيان هذه المسألة أنَّ إخبار المرء عن الحدث لا يخلو من صورتين:**

الأولى: أن يكون الحدث قد وقع.

وهذا لا يخلو من حالين:

(١) **أن يكون من أمور العادات**: فلا يُخبر عن ذلك بتعليق المشيئة (إن شاء الله)، فلا يقال: اشتريتُ سيارة إن شاء الله، وزرت صديقي إن شاء الله، وأكلت الغداء إن شاء الله؛ لأنه حصل وعَلِمْنا أنَّ الله شاءَه.

لكن يصحُّ أن يُربط ذلك بالمشيئة من باب التعليل، فتقول: اشتريت سيارة بمشيئة الله؛ لأنه لا يكون شيء في هذا الكون إلا بمشيئته وقدرته وإرادته، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

(٢) **أن يكون من أمور العبادات:** فهذا يصح فيه الاستثناء وعدمه.

فإن قصد مجرد الفعل فلا حاجة للاستثناء، تقول: صليت الظهر، وطُفت طواف العمرة، ونحو ذلك، بمعنى أن ذلك الفعل حصل وانقضى. وإن قصد القبول والتمام؛ فيعلق بالمشيئة، تقول: أدَّيتُ الحجَّ إن شاء الله، وصُمْتُ رمضان إن شاء الله، لأنه لا يدري هل أتمَّه وقُبِلَ منه؟ فيعلقه بمشيئة الله وإرادته.

الثانية: أن يكون الحدث لم يقع:

فيُخبَر عنه مُعلَّقًا بالمشيئة، عملا بهذه الآية ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾، أي: في شيء ﴿إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

وهذا فعل الأنبياء، كما قال الذبيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

واستحضارُ هذا المعنى يفتح للعبد باب الرضا، فالمرء يعمل ويخطط ويبذل الأسباب، فإن جرت الأمور بخلاف ما أراد فالحمد لله، مشيئة الله نافذة سابقة، فلا تحزن ولا تيأس.

استحضار هذا المعنى يضبط الشعور، ويحقِّق التوازن النفسي، فإن نَجَحَ وتحقَّق مراده فلا بَطَرَ ولا غرور، وإن أخفق وفشل فلا يأس ولا قنوط ولا حزن.

وأخبر النبي ﷺ عن سليمان بن داود – عليهما السلام – أنه قال: «**لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِئَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفارِسٍ يُجاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقالَ لَهُ صاحِبُهُ: إنْ شاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إنْ شاءَ اللَّهُ! فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إلَّا امْرَأَةٌ واحِدَةٌ، جاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ! والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ قالَ: إنْ شاءَ اللَّهُ، لَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسانًا أَجْمَعُونَ**»[1].

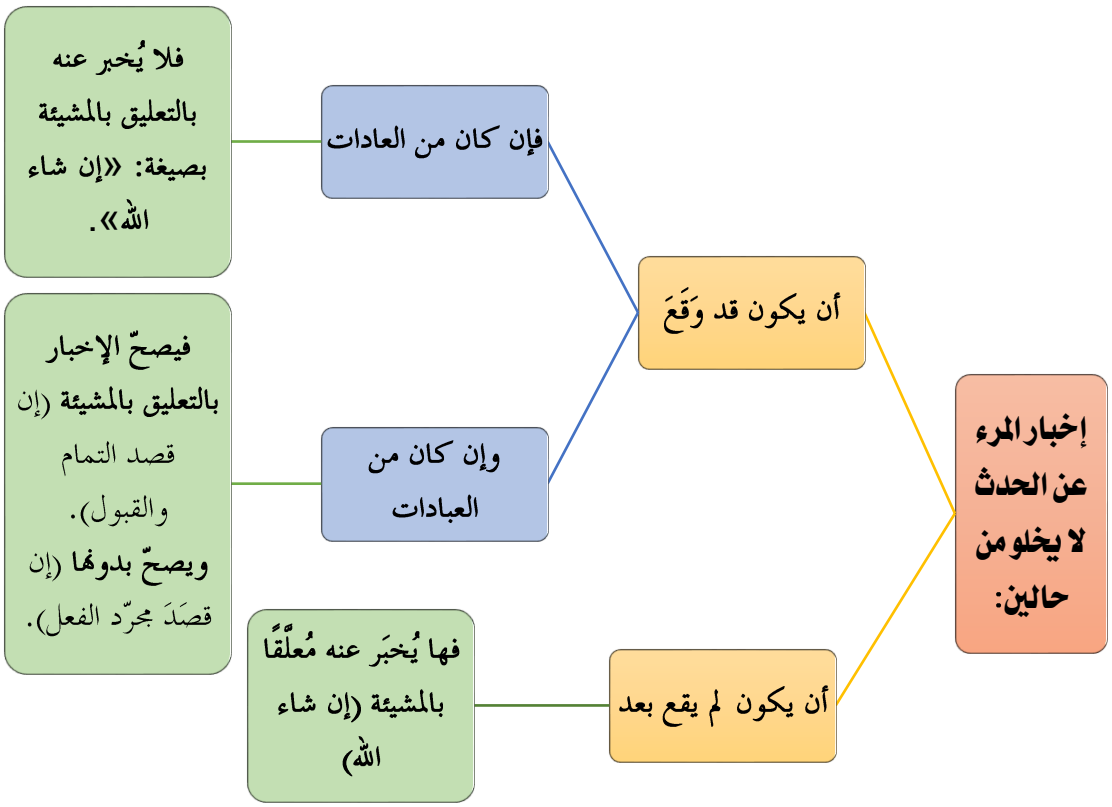

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٢٨١٩)، ومسلم (١٦٥٤).

ثلاث فوائد حول «إن شاء الله»:

- **الأولى: الاستثناء بالمشيئة يرفع الحنث في اليمين.**

فمَن قال: «والله، لأصومَنَّ الغد، إن شاء الله»، ثُمَّ لم يَصُم: فلا شيء عليه.

- **الثانية: حكم قول: أنا مؤمن إن شاء الله.**

هذه المسألة تسمى: (الاستثناء في الإيمان)، وهذا القول له حالان:

(١) أن يقوله شكًّا. وهذا محرَّم بالاتفاق، وربما كان كفرًا؛ لأن الإيمان جَزْم، والشكُّ ينافيه.

(٢) أن يقوله مع الجزم بالإيمان. ولهذه الحال صور:

أ- أن يقوله تبركًا بذكر الله. وهذا جائزٌ.

ب- أن يقوله من باب التعليل، يعني أن ما قام في القلب من الإيمان فهو كائن بمشيئة الله وإرادته، وهذا جائز صحيح.

ج- يقوله من باب الإزراء وعدم تزكية النفس بأنها حققت الإيمان وكمَّلته، وهذا حسن مطلوب.

- **الثالثة: تعليق الدعاء بالمشيئة.**

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إنْ شِئْتَ. لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّهُ لا مُكْرِهَ لَهُ**»(١).

هذا خطأ دارج في هذه الكلمة (إن شاء الله) أن يُعلَّق الدعاء عليها.

ودل الحديث على النهي، والنهي يفيد التحريم.

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩).

ومن تمام الأدب: أن يُظهِر العبد تمام الرغبة والفاقة والاضطرار إلى مطلوبه من ربه، ويعتقد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يتعاظمه شيء، «**يَدُ اللَّهِ مَلْأَى، لا تَغِيضُها نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْل والنَّهار**»(١).

الوقفة الرابعة: الله ولي الذين آمنوا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن هؤلاء الفتية المؤمنين: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ [الكهف: ٢٦]، أي: ليس لهم من دون الله ولي يتولى أمرَهم، فمن كان الله وليَّه فمعه المدد والعون.

- **والوَلاية قسمان:**

الأول: ولاية من الله للعبد. وهذه نوعان:

(١) ولاية عامة. وهذه تعمُّ جميعَ الخلق المؤمن والكافر، ومعناها: الخلق، والرزق، والهداية لمعاشهم.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢].

(٢) ولاية خاصة. وهذه خاصة بالمؤمن التَّقِي.

ومعناها: أن يتولى اللهُ العبدَ بعنايته وتوفيقه وهدايته ونصرته.

وهي درجة رفيعة يختص الله بها من يشاء ويحب من عباده، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

فمَن كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا.

وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

---

(١) **جزء من حديث متفق عليه:** أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال الله – تعالى – في الحديث القدسي: «**مَنْ عادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذنتُهُ بالحربِ، وما تَقَرَّب إليَّ عَبْدِي بشيءٍ أحَبَّ إليَّ مِمَّا افترضتُ عَليهِ، ولا يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ، كُنتُ سَمعَهُ الّذي يَسمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الّذي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتي يَبطُشُ بها، ورِجْلَهُ الّتي يَمشي بِها، ولَئِنْ سألَني لأُعطِيَنَّهُ، ولَئِنْ استَعاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**»(١).

ولي الله: مؤمن تقي، يتقرب إلى ربِّه بالفرائض والنوافل.

- **الثاني: ولاية من العبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.**

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، أي: أي من صدق في إيمانه، وتولى الله ورسوله والمؤمنين بالنصرة؛ فهو من حزب الله، وحزب الله هم الغالبون؛ لأن الله ناصرهم.

وهذا بخلاف من يتولى الشيطان، ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٩-١٢١].

فمن المهم أن نعرف ونميز بين هذين المعنيين: الله وليُّ المؤمن، والمؤمن وليُّ الله.

الفائدة المسلكية هنا: أن نسعى إلى تحقيق ولاية الله لكي نحظى بولاية الله(٢).

والمقصود: أنْ نصدُق في تحقيق ولاية الله والإيمان به ونصرة دينه؛ لكي نكون من أولياء الله (الولاية الخاصة)، التي يكون بها العبد في عناية ربِّه، مُسدَّدًا، مُوَفَّقًا، مهديًّا.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢).

(٢) المقصود بـ«ولاية الله» في الموضع الأول: موالاة العبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، من باب إضافة المصدر إلى مفعوله. والمقصود بها في الموضع الثاني: موالاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للعبد من باب إضافة المصدر إلى فاعله.

الوقفة الخامسة: القرآن زاد المؤمن.

يأمرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نبيَّه ﷺ: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧].

والتلاوة تشمل تلاوة اللفظ، وتلاوة العمل، ومنه قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته: أن يُحِلَّ حلاله ويحرِّم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يُحرِّف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوَّلَ منه شيئا على غير تأويله»(١).

فالتلاوة النافعة يشترك فيها اللسان والعقل والقلب والجوارح: اللسانُ في الترتيل وتصحيح الحروف، والعقلُ في فهم المعاني وتدبرها، والقلبُ في الاتعاظ والتأثر، والجوارح في العمل.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «تبارك الذي جعل كلامَه حياةً للقلوب وشفاءً لما في الصدور، وبالجملة فلا شيء أنفعُ للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين»(٢).

وقال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان صفة التدبر: «وصفة ذلك: أن يشغل قلبَه بالتفكر في معنى ما يلفِظُ به، فيعرف معنى كل آية ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى: اعتذر واستغفر، وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذابٍ أشفق وتعوَّذ، أو تنزيهٍ نزَّهَ وعظَّم، أو دعاءٍ تضرَّعَ وطَلَب»(٣).

---

(١) «تفسير الطبري» (٢/ ٤٨٩).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٨٧).

(٣) «الإتقان» (٢/ ٦٧٨).

والتدبُّر يسبقه فهم المعنى، ويكفي في ذلك مختصرٌ في التفسير.

الفائدة المسلكية هنا: أن نعتني بتلاوة كتاب الله التلاوة النافعة، وأن نحرص على تحقيق التلاوة بجوانبها: اللسان، والعقل، والقلب، والجوارح. كلُّ ذلك بحسب ما أمكن.

الوقفة السادسة: الصحبة الصالحة.

كثيرا ما طُرِق هذا الموضوع في حقِّ عموم المسلمين، لكن اللافت هنا أن الخطاب لرسول الله ﷺ المؤيَّدِ بالوحي من السماء، والمصطفى من الخليقة كلها، فهو أفضلها وأزكاها.

وجاء الخطاب بصيغة الأمر: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الكهف:٢٨]، والأمر بالصبر يشير إلى ضرورة بذل الجهد وأَطْر النفس، والنهي عن ضد ذلك، ولهذا قال - سبحانه -: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ [الكهف:٢٨].

وأشارت الآية إلى تصفية الصورة، وضبط المعيار في اختيار الأصحاب، وأنهم أصحاب الإيمان والعمل الصالح الذين يبتغون وجه الله، دون النظر إلى المظاهر البرَّاقة. قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف:٢٨].

الفائدة المسلكية هنا: أن المرء مهما بلغ في علمه ودينه؛ فهو بحاجة إلى إخوة له يجالسهم، ويجتمع بهم، ويتعاون معهم على سلوك الطريق والثبات عليه، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

الوقفة السابعة: الغفلة بوابة الضياع.

قال الله – تعالى –: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، في الآية تحذير من الغفلة عن الله، ومن مصاحبة الغافلين اللاهين.

والغفلة لها صور، ومنها:

(١) الغفلة عن آيات الله الكونية والشرعية.

وهذا حال كثير من الناس، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس:٩٢]، فهو غافل عن النظر في آيات الله المتلوَّة في كتابه، وغافل عن النظر في آيات الله المنظورة في هذا الكون الفسيح، فهو سادر في غفلته، لاهث وراء شهوته.

وإذا استولت الغفلة على القلب، استحكم الداء، فلم ينتفع بآية، ولم يتأثر بموعظة!

قال – تعالى –: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٤٦].

(٢) الغفلة عن الآخرة.

والمقصود: الغفلة عن الموت وما بعده من أهوال وشدائدَ عظام، وكثير من الناس غافل عن ذلك – أيضا –. قال – تعالى –: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، فهم يرون الموت بعيدًا جدًّا، ويؤمِّلون آمالا عريضة، ولا يستعدُّون للرحيل القريب المرتقب.

والعجب أن ترى العبد تأتيه النُّذر وإشارات التنبيه – مثل: تقدُّم السنِّ، والشيب، والمرض، وفَقْد الأقران، وغيرها –، ولا تحرِّك فيه ساكنا!

وما أحسن قول حكيم الأمّة أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أضحكني ثلاث: مؤمِّل الدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري: أَرْضَى اللهَ أم أسْخَطه»(١).

أمــا - واللهِ - لَــوْ عَلِــمَ الأَنــامُ ... لِمــا خُلِقُــوا لَمَــا هَجَعُــوا وَنــامُوا
لَقَــدْ خُلِقُــوا لِأَمْــرٍ لَــوْ رَأَتْــهُ ... عُيُــونُ قُلُــوبِهِمْ تــاهُوا وهــامُوا
ممَــاتٌ، ثُــمَّ قَــبْرٌ، ثُــمَّ حَشْــرٌ ... وَتَــوْبِيْخٌ، وأَهْــوالٌ عِظــامُ(٢)

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «وصدأُ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر. فمَن كانت الغفلة أغلبَ أوقاته كان الصدأ متراكبا على قلبه»(٣).

وقال: «ومِن أعظم أسباب ضيق الصدر: الإعراض عن الله - تعالى -، وتعلُّق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه»(٤).

وقال - أيضا -: «لابد من سنة الْغَفْلَة ورقاد الهوى، ولكن كن خفيف النوم»(٥).

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

وعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، إلا أربع سنين!»(٦).

---

(١) «المجالسة وجواهر العلم» (٢/ ٣٨٩).

(٢) «الكبائر»، للذهبي (ص: ١٣٣)، والأبيات له، والله أعلم.

(٣) «الوابل الصيب» (ص:٤٠).

(٤) «زاد المعاد» (٢/ ٢٤).

(٥) «الفوائد» (ص:٤١).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٠٢٧).

المعاصي، والابتعاد عن مجالس العلم والذكر، وضعف العبادة، والانصراف إلى متاع الدنيا ومتابعة أهلها = كلُّها أسبابٌ لِتوَلُّدِ الغفلة ونموها في القلب.

ومن آثار الغفلة الخطيرة: انفراط الأمر، فتذهب الأيام والشهور والسنوات، دون إنتاج أو أثر، تفقد بركة الوقت، وتفتر الهمم والنفوس، وتبرد العزائم، ويغلب الكسل والخمول.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، هذه الآية تهُزُّ القلب، فنسأل الله أن يعيننا على أنفسنا ويرزقنا الاتِّعاظ.

الفائدة المسلكية هنا: أن نحذر من الغفلة، ومن أسبابها، ومن أهلها، وأن نحرص على ما ينفعنا: من مجالس الذِّكر، ومجالسة الصالحين وأهل العلم، وغير ذلك.

المقطع الثالث

من قول الله – تعالى –: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾ [الكهف:٣٢]، إلى قوله – جَلَّ ذكرُه –: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٤٩].

والكلام عليه في الوقفات الآتية:

الوقفة الأولى: طغيان الغنى.

نجد في أوَّل هذا المقطع حوارا بين صاحبين: أحدهما مؤمنٌ، والآخر كافر. وهو حوار تتقابل فيه النفسُ المنفوشة بالطغيان، والنفس المُترعة بالإيمان.

الأول: اختال وافتخر، **والثاني**: لا مالٌ ولا نفَر، ولا جنة ولا ثَمَر، لكن معه ما هو أعلى وأبرُّ .. إيمان ويقين وأثَر.

أمَّا الأول: فأنعم الله عليه ببستانين من الأعناب، وفي أطرافهما أشجار النخيل الباسقة، وما بين هذا وذاك زروع وخيرات، والماء كان غزيرًا يتفجر خلال هاتين الجنتين. وكان المحصول وافيًا، فأثمرت كل حديقة ثمارها من: تمر وعنب وزرع، ولم تنقص منه شيئًا.

ومن اللطائف أن التعبير جاء بقوله: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الكهف:٣٣]، ولم يقل: «ولم تنقص»، مع أنها أشهَر وأكثر استعمالا، وكأن ذلك – والله أعلم– تعريضٌ بصاحب الجنتين الذي ظلم نفسه وبطِر وتكبَّر.

ووافق يومًا أن اجتمع الغنيُّ بصاحب له مؤمن، فقال له في أنفَة: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]، فافتخر عليه بأمرين: أحدهما: الغنى وكثرة المال، والثاني: الحسَب وعِزة القبيلة والعشيرة.

ولم يكتفِ بذلك، بل جاوز الحد، وقال – وهو يتبختر في بستانه –: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦].

استبعد فناء هذا البستان، وأنكر البعث بعد الموت.

ثُمَّ استدرك مستهزئا، أنَّه – على فرض وجود بعثٍ – فسوف يجد هناك ما هو خير من هاتين الجنتين، قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، يقول هذا على وجه التهكم والاستهزاء.

فأنكر عليه صاحبُه المؤمن هذا القولَ الشنيع، وذكَّره بربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وذكَّره بأصله، فقال له: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، وتبرَّأ من قوله، وأرشده إلى ما كان ينبغي أن يقول، ثم دعا على هاتين الجنتين بعذاب يدمِّرُهما من السماء، أو يصبح ماؤها غائرًا لا يوصل إليه.

فحقَّت كلمة الله جَلَّجَلَالُهُ، وأصبح المتكبر يقلِّب كفيه ندما وحسرة، نَدِمَ على شركه بربه، ولم يجد أحدًا ينصره ويمنعه من أمر الله – تعالى –.

وانتقل المشهد من صورة الحُسن والجمال والازدهار، إلى صورة الدمار والبوار.

الفائدة المسلكية هنا: احذر من طغيان الغنى!

نعم .. مع نشوة الغنى جُبل الإنسان على الطغيان ما لم يأطِرِ النفسَ برادع الإيمان، قال – تعالى –: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧].

ومن مظاهر الطغيان: نسبةُ الفضل إلى النفس، ورؤية الاستحقاق.

فيقول: هذا مالي ورِثتُه كابرًا عن كابر، وأنا حقيقٌ وجدير به، ويقول: إنما أوتيته على علم وخبرة، وأنا بصيرٌ بفنون التجارة وطرق الكسب والاستثمار وجني الأرباح، ونحو ذلك!

قال الله - تعالى -: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩].

وفي السُّنَّة النبوية شاهدٌ واضح، وهو قصة الثلاثة من بني إسرائيل: الأبرص، والأقرع، والأعمى(١).

وفي خبر قارون الذي آتاه الله ﴿مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]، أي: مفاتيح الخزائن يثقل حملها على الجماعة القوية، فكيف بهذه الخزائن وما فيها؟! لكنه طغى وبغى، وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، فكانت العاقبة أن خسف الله به وبداره الأرضَ.

المال فتنة، وأيُّ فتنة! قال ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي المالُ»(٢).

جُبلت النفوس على حب المال والتعلق به، قال الله - تعالى -: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، فجاء الإسلام بتهذيب غريزة حُبِّ المال في الإنسان، وكان طريقه في ذلك وسطا بين الاشتراكية المُفرِّطَة والرأسمالية المُفْرِطَة.

في هذا المال أبواب خيركثيرة إذا أُخِذ مِن حلال، وأنفق في وجوه الخير، فقد سمَّى الله المالَ خيرًا، فقال - سبحانه -: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٣٣٦)، وأحمد (١٧٤٧١)، وصححه الألباني.

النَّفْسُ تَجْزَعُ أَن تَكُونَ فَقِيرَةً ... والفَقْرُ خَيرٌ مِنْ غِنًى يُطْغِيها

وَغِنى النُّفُوسِ هُوَ الكَفافُ، وَإِن أَبَتْ ... فَجَمِيعُ ما فِي الأَرْضِ لا يَكْفِيها[1]

ومِن أحسن ما يُدفع به طغيانُ الغنى: تذكُّر المبدأ والمعاد.

المبدأ كما قال هذا الصاحبُ المؤمن: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾، **والمعاد** كما في قول الله - تعالى -: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٨].

تذكر أصلك كيف كنت؟ وأين أنت صائر؟

يُذكر أنَّ أميرًا غنيًّا كان يمشي متبخترًا مع حاشيته، فمرَّ ببعض الصالحين فلم يكترث له، فوقف الأميرُ، وقال له: ألا تعرفني! فقال: بلى، أوَّلُكَ نطفةٌ مذرة، وآخِرُكَ جيفةٌ قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة[2].

ذكر الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض الفوائد المستنبطة من هذه القصة، ومما يزاد:

(١) ينبغي للإنسان إذا أعجبه شيء من ماله أن يقول: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله».

(٢) النصيحة بين الأصحاب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

● ● ●

الوقفة الثانية: حقيقة الدنيا.

قال الله - تعالى -: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

---

(١) «جواهر الأدب»، للهاشمي (٢/ ٤٨٦).

(٢) القصة في «تاريخ دمشق» (٥٦/ ٤٢٧).

هذا مَثَلٌ قرآني يأمرُ الله – تعالى – نبيَّه ﷺ فيه: بأن يضرب مثلا للدنيا – في سرعة زوالها وانقضائها –، فيقول ما معناه: واضرِبْ مثلا للدُّنيا التي اغترُّوا بها – في بهجتها وسُرعة زوالها –؛ أنها كَماءٍ أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن السَّماء على الأرض، فكثُرَ بسبب هذا المطر نباتُ الأرض والْتَفَّ، واجتمَعَ بعضُه ببعض، فكان نَضِرا مُبهِجا .. ولكن ما هي إلا مدة يسيرة حتى صار يابسا متكَسِّرا تُفَرِّقُه الرِّياحُ، وكان الله على كُلِّ شيء مقتدرا: بتكوينه أوَّلا، ونمائه وسَطا، وإبطاله آخرا.

وتأمَّل هذا العرض السريع الخاطف للدنيا في ثلاث جمل قصار: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾، وهذا يصور لك حجمَ هذه الدنيا وسرعة زوالها.

هذه موعظة بليغة لمن كان له قلب، وقد علَّق الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره على الآية بموعظة بليغة بديعة.

والآية شبيهة بقول الله – تعالى –: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤-١٥].

ومضات حول هذه الوقفة:

- **الومضة الأولى: المراد بالحياة الدنيا.**

سُمِّيت الدنيا بهذا الاسم لوجوه، منها:

(١) **من الدُّنُوِّ**: وهو القُرب، فيكون تسمية الدنيا لقرب زوالها.

(٢) من الدناءة: وهي الحقارة والسفالة.

وتطلق الحياةُ الدُّنيا على معنيين: عام، وخاص.

فتُطلق بالمعنى العام على مدة بقاء الأنواع الحية على الأرض، وبقاء الأرض على حالتها.

وتُطلق بالمعنى الخاص: على مدة حياة الأفراد، أي حياة كل أحد.

- **الومضة الثانية: صورة الدنيا في القرآن والسنة.**

قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: إنما غالبها كذلك»(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، أي: هي الحياة الحقيقية.

وأوصى النبي ﷺ ابنَ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: «**كُنْ فِي الدُّنْيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عابِرُ سَبِيلٍ**»(٢).

وكان رسول الله يربِّي أصحابه على التعلق بالآخرة، فيقول ﷺ: «**مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وَما فِيها**»(٣).

وقال ﷺ: «**واللهِ، ما الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ ما يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ**»(٤).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤١٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٥٠).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٥٨).

وقال ﷺ: «**أَلا إِنَّ الدُّنْيا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ ما فِيها، إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَما والاهُ، وَعالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ**»(١)، أي: مذمومة مُبعِدَة عن الله؛ لأنها تشغل عنه، إلا ما استثني.

وهذه النصوص وغيرها تجلِّي صورة الدنيا، والنظرة الصحيحة إليها، وتعطينا درسًا في التصورات والأحكام على ما حولنا.

وليس المراد أن نطالب الناس بترك الحلال من الدنيا، وإنما تحذيرهم من التعلُّق بها، واللهث الذي يجُرُّ الإنسان إلى تجاوز المباح إلى المشتبه، ثم الحرام.

- **الومضة الثالثة: معالم منهجية في التعامل مع هذه الدنيا.**

أولا: الدنيا مزرعة الآخرة.

قال الله – تعالى –: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩].

وقال – تعالى –: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢].

وقال – تعالى –: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:٧].

فاغتنم وجودك القصير هنا في تنمية حياتك الأبدية هناك.

ثانيا: الدنيا برَّاقة فلا تَغْتَرّ، وهي ممرٌّ لا مَقَرّ.

وقد بدا ذلك واضحًا في آية الكهف، وأفادته الآيات الآتية:

قال الله – تعالى –: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة:٢٠-٢١].

وقال – تعالى –: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧].

وقال – تعالى –: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص:٦٠].

---

(١) **حسن:** أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وحسنه الألباني.

وإنَّ المنزلة والمكانة الحقيقية عند الله ليست بالمظاهر المدنية المادية، ولا بالإمكانيات الاقتصادية، قال – سبحانه –: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧].

والدنيا وسيلة لا غاية.

ثالثا: التوازن والاعتدال.

فالعاقل يَطلب من الدنيا ما يحتاجه المرء لنفسه ومَن يقوم عليه، ولا يجوز له تضييعُ من يمونهم.

قال الله – تعالى –: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقال – تعالى –: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وقال – تعالى –: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وما في هذه الدنيا قسمان: حرام وحلال.

ونعني بالحلال: ما يقابل الحرام، وليس المباح الذي هو أحد الأحكام التكليفية الخمسة.

والحلال نوعان:

(١) متعة حاضرة تزول سريعًا، كالمال والبنين واللباس والطعام والمراكب ونحوها، فهذه في ذاتها زينة وليست قيمة يمدح بها، وإنَّما يُتَوصَّل بها إلى نيل الأجر بالنية الصالحة، فلا أحد يُثنى عليه بالمال لذاته. لكن يُمدح إذا أنفقه في وجوه الخير، ويُذَمُّ إذا ضيَّعَه وأساء بذلَه.

(٢) عدة باقية نافعة، وهي الأعمال الصالحة، وهي الباقيات الصالحات، ومن فسَّرها بقول: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»، فهذا من باب التفسير بالمثال[1].

- ونتلمس هنا مناسبة التعقيب على هذا المثل بقول الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦]، فالأموال والأبناء في حقيقتها مجرَّدُ زينة، والذي ينفعُ العبدَ في الآخرة هو العملُ الصالح، فهو الباقي ذخرًا وأجرًا، فهو أولى بالعناية.

الوقفة الثالثة: حال الجبال في يوم الأهوال.

قال الله - تعالى -: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف:٤٧].

وفي الآية مشهد من مشاهد الآخرة، ويوم القيامة يومٌ عظيم مهول، تتغير فيه المظاهرُ الكونية المألوفة كالشمس والقمر، والسماء والأرض، والبحار والنجوم، وغيرها.

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٦١).

ومن ذلك: هذه الجبالُ الشُّمُّ الراسيات؛ فقد حكى القرآن عنها صورًا ظنَّها بعضُ الناس اضطرابًا، والصوابُ أنَّ المقصود بها اختلاف الأحوال وتعاقبها، وهذا مسلك مفيد في رفع الإشكال المتوهم في النصوص.

وذلك أنَّ الجبال في الآخرة تمر بمراحل هي:

(١) الحَمْل، والدكُّ.

قال الله – تعالى –: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٣-١٤].

وقال – تعالى –: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، وقال – تعالى –: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ١٠].

فهذه الجبال يقتلعها الله من أصولها فيدكّها وينسفها، فيدع الأرض التي كانت تحملها مستويةً لا بناء عليها ولا نبات، لا ترى أيها الناظر في الأرض ميلًا ولا ارتفاعًا ولا انخفاضًا، وذلك لتمام استواء الأرض.

(٢) تحوُّلها إلى كثيب وهباء كالصوف المنفوش.

قال الله – تعالى –: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، أي: بمنزلة الرَّمل المنهال المنتثر، فتكون كالصوف المنتفش، وقال – تعالى –: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وقال – تعالى –: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥-٦]، أي فُتِّتت الجبال تفتيتًا، فكانت – من التفتيت – غبارًا منتشرًا لا ثبات لها.

(٣) تسييرها في الهواء.

وبعد نسفها وتحوُّلها إلى هباء، يسيِّرها اللهُ في الهواء بين السّماء والأرض. قال الله – تعالى –: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف:٤٧]، وقال – تعالى –: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير:٣]، ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور:١٠].

فيُسَيَّر هذا الهباء في الهواء ويكون كهيئة السراب .. قال – تعالى –: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ:٢٠].

الفائدة المسلكية هنا: أن نعتبر من هذه الجبال التي نراها في عظمتها ومتانتها، كيف تكون في الآخرة، وهذا يوجب للعبد تعظيمَ ربِّه القادرِ على هذه المخلوقات العظيمة، وخشيتَه والإحسانَ في عبادته.

الوقفة الرابعة: الدار الآخرة .. مشاهد وأحداث.

قال الله – تعالى –: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٨-٤٩].

تُصَوِّرُ هذه الآياتُ مشاهدَ رهيبة، ومواقفَ مهيبة في عالم الدار الآخرة، ولعلي أعيد ترتيبَ المشاهد والأحداث؛ ليتضِح الحدثُ ويحسُنَ تصورُه.

أولا: النفخ في الصور.

إذا أراد اللهُ فناء الدنيا وابتداء الآخرة، أمر مَلَكًا كريما – وهو إسرافيل – أن ينفُخَ في الصور.

والصور: قرنٌ يُنفخ فيه. وجاء ذكرُه في القرآن في أكثر من عشرة مواضع. وهما نفختان: الأولى: نفخة فزع وصعق، والثانية نفخة بعث وقيام.

ثانيا: البعث.

والمقصود بالبعث: إحياءُ الله الموتى وإخراجُهم من قبورهم أحياء للحساب والجزاء. ويعبَّر عنه بالنُّشور، فهو مرادف له في المعنى. والأدلة عليه لا تحصى من الكتاب والسنة، فهو قضية مركزية عظمى في القرآن الكريم.

ثالثا: الحشر والموقف.

ويراد بالحشر: جمع الأموات وسوقُهم من قبورهم إلى الموقف بعد البعث.

وهو ثابت دلَّ عليه الكتاب والسنة، وأجمع عليه المسلمون.

كما قال تعالى هنا: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧].

ويُحشَر الناسُ حُفاةً لا نِعال عليهم، عُراةً لا كسوة عليهم، غُرلا غير مختونين؛ لقوله تعالى هنا: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف:٤٨].

ثم يُساق الناسُ إلى الموقف الذي أعده الله - تبارك وتعالى - مكانا لاجتماع خلقه فيه، وشرَّفه - جل وعلا - بنزوله فيه لفصل القضاء بين عباده؛ ويصيب الناسَ من الشدَّة والكرب ما لا يعلمه إلا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

رابعا: الشفاعة العظمى.

وهي الشفاعة الخاصَّة بالنَّبي ﷺ لأهل الموقف، حينما يُحشَر الناس ويُساقون إلى ذلك الموقف الرهيب العصيب، فيشفع لهم عند ربِّه في فصل القضاء.

خامسا: العرض، والحساب، والكتب.

قال تعالى هنا: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾.

والمراد: عَرض العباد على ربهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الموقف صفوفا، عندما يتجلَّى تبارك وتعالى لهم لحسابهم وفصل القضاء بينهم، فيكون الحساب.

والمراد بالحساب: إطلاعُ الله عبادَه على أعمالهم، ومقاديرِ الجزاء عليها.

ودلَّت عليه أدلةٌ كثيرة جدا من الكتاب والسنة، منها:

قولُ الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

وهو حساب عظيم دقيق، لا يفوِّت شيئا.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وهذا يوجب على المسلم ألا يتهاون بالحسنات وإن صغرت، ولا بالسيئات وإن صغرت، قال الله – تعالى –: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وفي ختام مشهد الحساب تنشر الكتب وتتطاير الصحف، ويُعطى كلُّ عبد كتابَه المشتمِلَ على سجل كامل لأعماله التي عملها في الحياة الدنيا.

والناس صنفان:

(١) **المؤمن**، ويؤتى كتابَه بيمينه من أمامِه، فيحاسب حسابا يسيرا، وينقلبُ إلى أهله في الجنة مسرورا.

(٢) **الكافر والمنافق وأهل الضلال**، وأولئك يؤتون كتُبَهم بشمالهم من وراء ظهورهم، وعند ذلك يدعو الكافر بالويل والثبور، وعظائم الأمور! قال – تعالى –: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٠-١٢].

وهنا ينبهر المجرمون، ويقولون: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٤٩].

أحوال الناس في الحساب.

الناس يوم القيامة – من جهة الحساب – ثلاثة أصناف:

أولا: من يحاسَب حسابا عسيرا.

ويكون حسابهم بالمناقشة والاستقصاء. وهذا للكفرة والمشركين، وبعض عصاة الموحدين.

ثانيا: من يحاسب حسابا يسيرا.

ويكون حسابُهم أن تُعرض على العبد ذنوبُه ويقرَّرَ بها، ثم يتجاوز اللهُ عنها.

وهذا معنى قوله – تبارك وتعالى –: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ [الانشقاق:٧-٨].

وعن أمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ أَحَدٌ يُحاسَبُ يَوْمَ القِيامَةِ إلَّا هَلَكَ**». قالَتْ: فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ قَدْ قالَ اللَّهُ – تَعالَى –: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ [الانشقاق:٧-٨]، فَقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنَّما ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُناقَشُ الحِسابَ يَوْمَ القِيامَةِ إلَّا عُذِّبَ**»(١).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ اللَّهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذا، أتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أيْ رَبِّ، حَتَّى إذا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأى فِي نَفْسِهِ أنَّهُ هَلَكَ، قالَ: سَتَرْتُها عَلَيْكَ فِي الدُّنْيا، وَأنا أغْفِرُها لَكَ اليَوْمَ، فَيُعْطَى كِتابَ حَسَناتِهِ**»(٢).

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٦٥٣٧)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٢) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

ثالثا: من يدخل الجنة بغير حساب.

وهم الصفوة والخيار المذكورون في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب[1]، جعلنا اللهُ منهم.

وأوَّل الخلق حسابا: أمةُ محمد ﷺ.

وأوَّل ما يحاسب عليه العبد: الصلاة.

الفائدة المسلكية هنا: أن نستحضر هذه الأحداث والمشاهد، ونُكثِر من مذاكرتها، والأهم من ذلك: أخذُ العدة والأهبة.

(١) ينظر: صحيح البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).

المقطع الرابع

من قول الله – تعالى –: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، إلى قوله – جَلَّ ذكرُه –: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

والكلام عليه في الوقفات الآتية:

الوقفة الأولى: شذرات في قصة آدم وإبليس.

قال الله – تعالى –: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وهنا أربع مسائل:

المسألة الأولى: من هم الملائكة؟

الملائكة عالم غيبيٌّ خلقَهم الله من نُور، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

لا يوصفون بالذكورة ولا بالأنوثة، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يَمَلُّون ولا يتعبون، ولا يتناكحون، ولا يعلم عددهم إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والإيمان بهم ركن من أركان الإيمان الستة.

المسألة الثانية: من هو إبليس؟

أصل هذه الكلمة من الإبلاس، ومعناه في اللغة: الانقطاع واليأس والحزن[1].

(١) ينظر: «تاج العروس» (١٥ / ٤٦٤).

قال الله – تعالى –: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم:١٢]، أي: ييأس المجرمون من رحمة الله، وينقطع أملهم؛ لانقطاع حجتهم.

و«**إبليس**»: عَلَم على ذاك المعيَّن، الذي أمره الله بالسجود لآدم فأبى واستكبر، فلعنه الله وطرده.

وإبليس أصل الجنِّ وأبوهم، كما أن آدم أصلُ الإنس، وقد سبق خلق إبليس خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال الله – تعالى –: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٦-٢٧].

وذرية إبليس هم الجنُّ، والجنُّ عالم من العوالم خلقهم الله من نار، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٤-١٥].

وهم – كالإنس – مُكلَّفون ومحاسبون على أعمالهم، وفيهم المؤمن والكافر، والبَرُّ والفاجر، إلا أنهم يرون الإنس دون عكس، قال الله – تعالى –: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧].

والشيطان: كلُّ عاتٍ متمرِّد من الإنس والجن والدواب، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ**»(١).

وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن شيطان الإنس أشد عليَّ من شيطان الجن، وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عيانا»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥١٠).

(٢) «تفسير القرطبي» (٧/ ٦٨).

وإبليس رأس الشياطين، وكثيرًا ما يُخبَر عنه بالشيطان، كما في قول الله - تعالى -: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]، وقولِه تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وبهذا تُعرف الصلة بين إبليس والشيطان والجن.

المسألة الثالثة: هل إبليس من الجن، أم من الملائكة؟

هذه مسألة مشهورة عند أهل العلم. والراجح أنه من الجن، ومن الأدلة على ذلك:

(١) آية الكهف هذه، وفيها قوله - تعالى -: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، وهو نصٌّ في المسألة.

(٢) أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكى قوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، والجن هم الذين خُلِقوا من نار، أما الملائكة فمن نور.

(٣) عصمة الملائكة من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس، كما قال - تعالى - عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

- أما ما ورد من استثناء إبليس من الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فهذا استثناء منقطع، والمراد به في اللغة: أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦].

وإنما استُثْنِي منهم لأنه كان معهم: مشاركا لهم ومتشبِّها بأفعالهم، وإن لم يكن من جنسهم.

- وأمَّا ما ذكره الطبري وغيره من آثار فيها أن إبليس كان من الملائكة؛ فهي من الإسرائيليات التي لا يعوَّل عليها أمام ما سبق من الأدلة الواضحة.

المسألة الرابعة: حقيقة سجود الملائكة لآدم.

هو سجود حقيقيٌّ لآدم، لكنه سجودُ تحية وإكرام لآدم، وسجود عبادة وطاعة لله - تعالى -. والسجود لغير الله إذا كان بأمر الله - تعالى - كان عبادة.

وقد كان السجود تحيةً جائزة في الأمم السابقة، كما في قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثُم نُسخ ذلك في مِلَّتنا.

وعن عبد الله بن أبي أوفى قال: لَمَّا قَدِمَ مُعاذٌ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ! قالَ: «**ما هَذا، يا مُعاذُ؟**» قالَ: أَتَيْتُ الشَّامَ فَوافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَساقِفَتِهِمْ وَبَطارِقَتِهِمْ، فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ! فَقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَلا تَفْعَلُوا؛ فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِها**»(١).

وظاهر السياق أن الملائكة الذين أُمِروا بالسجود لآدم: جميعُ الملائكة، كما يفيده التأكيد في قول الله - تعالى -: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠].

الفائدة المسلكية هنا: الحذر من مخالفة أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والحذر من طاعة الشيطان والركون إلى وسوسته وكيده؛ فقد قطع الله بعداوته لنا، وأمرنا باتخاذه عدوًّا، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، وهو - بحمد الله - كيدُه ضعيف، وهو وسواس خنَّاس: وسواسٌ عند الغفلة، خنَّاسٌ عند الذكر.

الوقفة الثانية: الهداية.

قال الله - تعالى -: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]، وقال بعدها: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

---

(١) **صحيح:** أخرجه ابن ماجه (١٨٥٣)، وأحمد (١٩٤٠٣)، وقال الألباني: حسن صحيح.

يذكُر الله في هذه الآية مانعًا من موانع الهداية، وهو العِناد والتحَدِّي، حيث امتنع هؤلاء من الإيمان بعد أن جاءهم سبب الهداية (الرسول، والقرآن)، وذلك بسبب تحدِّيهم للرسول ﷺ، وطَلَبِهم أن تصيبهم سُنَّةُ الله في إهلاك السابقين عليهم، أو يصيبهم عذابُ الله عيانا، فخَتَم الله على قلوبهم!

والكلامُ على الهداية في أربع مسائلَ مختصرة:

المسألة الأولى: نعمة الهداية.

الهداية من أعظم النِّعم والمِنَن.

قال ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧].

وقال رسول الله ﷺ للأنصار: «**يا مَعْشَرَ الأَنْصارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَداكُمُ اللَّهُ بِي**»(١).

والعبد يكرِّر في اليوم والليلة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]؛ لأنه محتاج إلى تفاصيل الهداية، ومحتاج إلى الثبات على الهداية.

والهداية تتبعها هداية، قال الله – تعالى –: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:١٧].

المسألة الثانية: أقسام الهداية.

الهداية قسمان:

أولا: هداية فطرية:

وهذه عامة لجميع المخلوقات. ومعناها: إلهامهم ما فيه مصالحهم في أمور معاشهم. ومن صورها: هداية اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للصبي الوليد إلى التقام ثديِ أمه ومصِّه ليتغذى

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري(٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

به، وهداية النحل أن تتخذ بيوتًا من الجبال ومن الشجر، وأن تعمل في نظام دقيق، وهداية الحيوانات إلى التزاوج والتناسل بينها دون معلِّم.

وهذه الهداية هي المقصودة في قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٣].

أي: هدَى كلَّ مخلوق إلى ما يناسبه ويوائمه.

ثانيا: هداية دينية. وهذه نوعان:

(١) **هداية توفيق وإلهام.** وهذه خاصة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(٢) **هداية دلالة وإرشاد.** وهذه ثابتة للبشر.

وبهذا التقسيم يتبيَّن وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِى مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالهداية المنفية في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِى مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾، هي هداية التوفيق والإلهام. والهداية المثبتة في قوله - سبحانه -: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾، هي هداية الدَّلالة والإرشاد.

المسألة الثالثة: أسباب الهداية.

مما يعين على تحصيل الهداية:

أولا: الدعاء.

قال الله - تعالى - في الحديث القدسي: «**يا عِبادِي كُلُّكُمْ ضالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**»(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧).

ونحن ندعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كل ركعة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦].

ومن الأدعية النبوية: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى والتُّقَى، والْعَفافَ والْغِنَى**»(١)، و«**اللهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي**»(٢)، «**واهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي**»(٣).

ثانيا: الإيمان.

قال الله – تعالى –: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن:١١].

ثالثا: القرآن.

قال الله – تعالى –: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، وقال – تعالى –: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة:١٦]، وقال – سبحانه –: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ [فصلت:٤٤].

رابعا: المجاهدة.

قال الله – تعالى –: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

خامسا: الصحبة الطيبة.

قال الله – تعالى –: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٢١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٢٥).

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٥١٠)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، والترمذي (٣٥٥١)، وصححه الألباني.

يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

سادسا: الاعتصام والتمسك بالدين والثبات عليه.

قال الله – تعالى –: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وقال – تعالى –: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

سابعا: طاعة الرسول ﷺ.

قال الله – تعالى –: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]، وقال – تعالى –: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

ثامنا: التوبة والإنابة.

قال الله – تعالى –: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقال – تعالى –: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

المسألة الرابعة: موانع الهداية.

أولا: اتِّباع الهوى.

ومعناه: اتباع ما تميل إليه النفس ممَّا لم يُبِحْه الشرع في أمور العقائد، أو الشرائع والعبادات، أو الأخلاق والمعاملات.

واتباع الهوى يحجب عن سُبُل الهداية ويصرف عنها، قال ربُّنا – سبحانه –: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ثانيا: الكبر والغرور.

وهو يُعْمِي صاحبَه ويصرفه عن الخير، قال الله – تعالى –: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف:١٤٦].

ثالثا: عدم الأهلية.

فمَن عَلِم اللهُ إعراضَه وصدودَه، مع توالي النُّذُر والآيات والدعوة إلى الحق، فإن هذا العبد لا يُوَفَّق لهداية التوفيق من الله لعدم قابلية المحل، قال – تعالى –: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]، وقال – سبحانه –: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقال – جلَّ ذكره –: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة:١٠٨].

فهذا فيمن سبق في علم الله أنه لا يهتدي لعدم قبوله.

وليس في هذا ظلم منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأولئك المعرضين، ولا حجةٌ لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم؛ فإنهم هم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهُدى بعد ما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال والزَّيْغ الذي لا حيلة لهم في دفعه، وتقليب القلوب عقوبة لهم وعدلا منه بهم، كما قال – تعالى –: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

رابعا: عدم الخضوع والاستجابة لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال الله – تعالى –: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:٦٦-٦٨]، والمراد هداية التوفيق.

خامسا: تأثيرُ جليس السوء.

وفي قصة أبي طالب حين حضرته الوفاة أوضح شاهد ودليل، فقد صُرِف عن الإيمان وعن كلمة التوحيد في آخر لحظات حياته، ومات على الشرك والكفر بسبب اثنين من قومه(١).

الفائدة المسلكية هنا: استحضار نعمة الهداية، والسعي في كل سبب يثبتها ويزيدها، والنأي عن كل مانع منها.

الوقفة الثالثة: الاستهزاء بالدين.

قال الله – تعالى –، في وصف الكافرين: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾ [الكهف:٥٦].

وهذه سمةٌ غالبة يفزع إليها الكفرة والمنافقون والفاسقون، وهي: الاستهزاء بأهل الدين وما يحملونه من شعائر دينهم ومعالمه.

ولعلِّي أتحدث حول هذه الوقفة في أربع مسائل:

المسألة الأولى: معنى الاستهزاء، وضابطه.

الاستهزاء: هو السخرية(٢). قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

ويُرجَع في ضابطه إلى العرف، فما عدَّه الناس استهزاءً فهو كذلك.

فالاستهزاء بالدِّين يشمل كلَّ قول أو فعل يدل على الطَّعْن في الدين، والتنقُّص منه، والاستخفاف به.

المسألة الثانية: حكم الاستهزاء بالله ورُسُله ودين الإسلام.

مَن استهزأ بالله أو برُسُلِه أو بدين الإسلام = فهو كافر.

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

(٢) ينظر: «لسان العرب» (١/ ١٨٣).

ومن الأدلة على ذلك: قول الله – تعالى –: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، وهذا نصٌّ في كفره، ولو كان هازلا.

وهناك أدلة أخرى لا نطيل بذكرها.

فمن وقع في شيء من ذلك فعليه المسارعة بالتوبة، وتجديد الإسلام.

المسألة الثالثة: واجب المسلم عند سماع الاستهزاء.

الاستهزاء بالدين مَرْتَعٌ وَخِيم، وبلاء عظيم، وقع التساهل به في الأزمنة المتأخِّرة، لاسيما في وسائل الإعلام ووسائل التواصل بأنواعها. و«الواجب على المسلم – إذا سمع أو رأى شيئا من الاستهزاء بالدِّين – أن يُنكِر على قائله وفاعله إنكارا شديدا. فإن لم يستجب له لزمه مغادرة المكان الذي هو فيه. قال – تعالى –: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وأما التبسُّم والضحك عند سماع هذا الكلام، فيَجعل صاحبَه شريكا للقائل في الإثم، إن كان عن رضا وقبول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾. وإن لم يكن عن رضا وقبول، فهو معصية كبيرة تدل على عدم تمكُّنِ تعظيم الله وشعائره من قلبه»[1].

المسألة الرابعة: حكم الاستهزاء بالعلماء وسائر المسلمين.

الاستهزاء بالمسلم له صورتان:

---

(١) موقع الإسلام سؤال وجواب: https://islamqa.info/ar/answers/٢٣٨٣١

الأولى: أن يكون ذلك في أمر دينيٍّ، كاللحية، وتقصير الثوب، وحجاب المرأة. فإن كان الاستهزاء لذات الشرع فهو كفر. وإن كان عائدا على الشخص فهو فسق.

الثانية: أن يكون الاستهزاء بذات الأشخاص وأفعالهم الدنيوية المجردة، كمن يستهزئ بفلان في لباسه أو أكله، فهو فسق، وفيه يقول الله – تعالى –: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: ١١].

ويَدْخُل في ذلك العلماءُ، والاستهزاءُ بهم أشد من الاستهزاء بسائر المسلمين: فإن كان الاستهزاء لدينهم فهو كفر أكبر، وإن كان لأشخاصهم وذواتهم (أي: لصفاتهم الخَلقية أو الخُلقية)، فهو فسق.

الفائدة المسلكية هنا: الحذر من كل باب أو مدخل من مداخل الاستهزاء بالدين وأهل الدين، وإنكارُ ذلك، والبُعد عن مجالسة المستهزئين – واقعيا، أو افتراضيًّا، عبر وسائل التواصل –، أو موافقتهم.

الوقفة الرابعة: خطر الإعراض عن آيات الله.

قال الله – تعالى –: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧].

والكلام على هذه الوقفة في مسائل:

المسألة الأولى: معنى الإعراض، وورُودُه في القرآن.

الإعراض عن الشيء: الصدُّ عنه، بأن توليه عَرْضَك: أي جانبك[1].

وحقيقته: الانصراف عن الشيء بالقلب.

(١) ينظر: «لسان العرب» (٧/ ١٨٢).

وقد ورد ذِكرُ الإعراض في القرآن الكريم في أكثر من خمسين موضعا.

وجاء التعبير عنه بألفاظ أخرى، منها:

(١) **التولِّي**. قال الله – تعالى –: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢].

(٢) **الصدود**. قال الله – تعالى –: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

(٣) **الأُفُوْك**. قال الله – تعالى –: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩].

(٤) **الإدْبار**. قال الله – تعالى –: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [المدثر: ٢٣].

وكثُر في القُرآن الحديثُ عن هذه المعاني، وبيانُ حال المعرضين ومآلهم.

المسألة الثانية: صور الإعراض.

من صور الإعراض:

(١) **الإعراض عن آيات الله الشرعية والكونية.**

قال الله – تعالى –: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢]، أي: أعرض عنها بالصدود وعدم القبول.

وقال – تعالى –: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ [طه: ٩٩-١٠٠].

والذِّكر هو القرآن، فمن أعرض عنه فلم يؤمن به، ولا عمل بما فيه؛ فإنه يأتي يوم القيامة حاملا إثما عظيما، ومستحِقًّا عقابا أليما.

وقد يكون الإعراض عن الآيات الكونية بعدم التفكُّر والاعتبار، ومن ذلك قوله – تعالى –: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

والإعراض هنا بمعنى الغفلة وعدم الاعتبار.

(٢) الإعراض عن الامتثال.

فترِد على العبد الأوامرُ والنواهي، وهو يسمع ويفهم، لكنه معرضٌ غيرُ مبالٍ. قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال - سبحانه -: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦].

(٣) الإعراض عن الآخرة.

ويكون بالغفلة عنها، وعدم الاستعداد لها. قال ربُّنا - سبحانه -: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

(٤) الإعراض عن المواعظ والتذكير.

فإذا سمع الموعظة في مجلس أو مناسبة انقبض واشمأزَّ، وكره هذا المجلس، وتمنَّى الخلاص منه.

وهذه علامة سوء! وقد أخبر الله عن المشركين فقال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]. وقال - جلَّ ذِكرُه -: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١].

المسألة الثالثة: أسباب الإعراض.

(١) تسلط الدنيا على القلب.

قال الله – تعالى –: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، وقال – جل وعلا –: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

(٢) العناد والتعنت.

وهذه خصلة ترسخت في نفوس كثير من المعرضين، وتأمل قوله – تعالى –: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤]، وقوله – سبحانه –: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥].

(٣) التقليد.

فيقلد الآباء والقبيلة وأهل البلد في الباطل.

قال الله – تعالى –: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣-٢٤]

(٤) الكبر.

كما وقع لإبليس حين أُمر أن يسجد لآدم، فإنه عصى وأعرض بسبب كِبره.

المسألة الرابعة: أنواع الإعراض.

الإعراض عن الدِّين نوعان:

الأول: إعراض كلي.

وهو الإعراض التام عن تعلم أصل الدِّين مع قُدرته على ذلك، أو يعرض إعراضا تاماً عن جنس العمل، مع القدرة. وصاحب هذا الإعراض كافر خارج عن ملة الإسلام.

والثاني: إعراض جزئي.

وهو الإعراض عن تعلم تفاصيل الدين، وعن العمل ببعض الواجبات. وصاحب هذا الإعراض ناقص الإيمان مع بقاء أصله، فهو لا يخرج بإعراضه عن الإسلام.

المسألة الخامسة: عقوبة الإعراض.

الإعراض عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعن شريعته = سبب لنزول أنواع العذاب في الدنيا والآخرة. وقد أخبرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحال قوم سبأ وما هم فيه من نعيم الدنيا، ثم تحولت العافية عنهم، وأُبدل حالهم من النعمة إلى النقمة بسبب إعراضهم، قال - تعالى -: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ:١٦].

وجاء التهديد المخيف لكفار مكة إن قابلوا الدعوة بالإعراض، قال - تعالى -: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣].

وعذاب الآخرة أشد وأبقى، قال ربُّنا- جل ذِكرُه -: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه:٩٩-١٠١].

وأهل الإعراض متوعَّدُون بانتقام الله - تعالى -، ومن يبارز الله جَلَّجَلَالُهُ في جبروته وملكوته؟! ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢].

ومن العذاب العاجل ما يجده المعرضون في صدورهم من ضيق وضنك، يجعل عيشهم مرًّا، ولو كانوا في الظاهر منعمين، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأيتُ سبب الهموم والغموم الإعراضَ عن الله - عز وجل -، والإقبال على الدنيا»(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن أعظم أسباب ضيق الصدر: الإعراض عن الله - تعالى -، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه؛ فإن من أحب شيئا غير الله عذب به، وسجن قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أَكْسَف بالا، ولا أَنْكَدُ عيشا، ولا أَتْعَبُ قلبا»(٢).

(١) «صيد الخاطر» (ص: ٣٤١).

(٢) «زاد المعاد» (٢/ ٢٤).

المقطع الخامس

من قول الله – تعالى –: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠]، إلى قوله – جَلَّ ذِكرُه –: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

هذا المقطع من السورة يتضمَّن قصة موسى وفتاه مع الخضر، وهي القصة الثالثة من قصص السورة الأربع، وأطولها.

والكلام عليه في الوقفات الآتية:

الوقفة الأولى: أطراف القصة.

أطراف هذه القصة ثلاثة، ذكر اسم أحدهم في القصة، وأُبهِم الاثنان، لكن بُيِّنا في السنَّة:

الأول: موسى بن عمران عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

رسولٌ كريم من رسل الله، وهو من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم – عليهم السلام –. وهو كليم الرحمن، وأحد أولي العزم من الرسل، آتاه الله التوراة، وأرسله إلى فرعون، وجرى بينهما أحداث كثيرة ذكرها الله في كتابه. وأكثر قصص القرآن تكرارا قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

الثاني: يوشع بن نون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

لم يُذكر اسمه في سياق القصة، وإنما قال – تعالى –: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٠]، لكن ثبت اسمُه عن النبي ﷺ.

وتسميته بهذا الاسم متفق عليه بين أهل العلم، وإنَّما سُمِّي فتاه؛ لأنَّه كان يلازمُه، ويأخذُ عنه العِلمَ ويَخدُمُه[1].

وهو الذي خَلَف موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على قومه، وفتح بيتَ المقدس، وورد عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لَيَالِيَ سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمُقْدِسِ**»[2].

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِياءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِها، وَلَمَّا يَبْنِ بِها، وَلا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَها، وَلا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلادَها. فَغَزا فَدَنا مِنَ القَرْيَةِ صَلاةَ العَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْها عَلَيْنا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ**»[3].

فإذا جمعنا هذا الحديث مع الذي قبله؛ توصلنا إلى أنه نبيٌّ من أنبياء الله.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده: فتاه يوشع بن نون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو الذي دخل بهم بيت المقدس»[4].

ثالثا: الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ولم يُذكر اسمه – أيضا – في القصة، لكن بينت ذلك السُّنَّة.

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٣/ ٩٥).

(٢) **صحيح:** أخرجه أحمد (٨٣١٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/ ٣٩٤).

(٣) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧).

(٤) «البداية والنهاية» (١/٣٥٩). وينظر – للمزيد عن يوشع عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، عند هذه الآية.

والخضر ممَّن كثُر الكلام عليه، وأطال الحافظ ابن حجر ترجمته في «الإصابة»، بل أفردَ فيه كتابا سمَّاه «الزهر النضر في أخبار الخضر».

والذي يَعنينا من أمره مسألتان:

الأولى: هل هو نبيٌّ؟

وعامّة العلماء على أنه نبيٌّ. ومن الأدلة على ذلك:

(١) ظاهر قول الله – تعالى – في شأنه: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وقوله – تعالى –: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢].

(٢) أنه أقدَمَ على أفعال لا تصدر إلا عن وحي، كقتل الغلام.

الثانية: هل مات؟

الراجح أنه مات. والدليل على ذلك:

(١) عموم قول الله – تعالى –: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

(٢) قوله ﷺ: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْها، لا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ**»(١).

(٣) لو كانَ حيًّا، لوجبَ عليه أن يُؤمنَ بالنبي ﷺ ويُهاجِرَ إليه ويُجاهِدَ معه، ويكون من أعيان الصحابة رضي الله عنهم، ولم يقع شيء من ذلك.

(٤) لو كان حيًّا – وهو من أنبياء الله –، فلا بد أن يشتهر أمره ويُعرَف ويُتبع ويؤخذ عنه.

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (١١٦)، ومسلم (٢٥٣٧).

وقد فنَّد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ القولَ ببقائه حيًّا من عدة وجوه في كتابه «المنار المنيف»[1].

الوقفة الثانية: أحداث القصة.

لعلِّي أقرِّب أحداث هذه القصة التي وقعت لموسى مع الخضر - عليهما السلام -، من خلال ما ذُكِر في القرآن والسنة. وسأجعل ذلك في حلقتين:

الحلقة الأولى: قبل اللقاء.

قام موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يوما خطيبًا في بني إسرائيل، فسأله رجلٌ عن أعلم الناس، من هو؟ فظَنَّ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه أعلمُ أهل الأرض، لكونه رسولَ رب العالمين، فأجاب ذلك السائل بقوله: أنا أعلم. وكان الأَوْلى به عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يقول: «الله أعلم».

قال رسول الله ﷺ: «**فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبادِي بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ**»[2].

ومجمع البحرين هو ملتقى البحرين، والله أعلم بحقيقة المراد.

ومن اللطائف ما قال السُّهَيْلِيُّ: «اجتمع البحران - يعني موسى والخضر عليهما السلام - بمَجمَع البحرين»[3].

فعزم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فورًا أن يلتقي بهذا العبد الذي هو أعلم منه، وكانت هِمَّتُه عالية، وعزيمته راسخة، فقال: ﴿**لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا**﴾ **[الكهف: ٦٠]**، أي: لا أزال أسير حتى أصل هذا المكان، أو أظلُّ سائرا زمنا طويلا حتى ألقاه.

---

(١) يُنظر: «المنار المنيف في الصحيح والضعيف» (ص: ٦٧).

(٢) جزء من حديث **متفق عليه:** أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٣) نقله الحافظ في «الفتح» (٨/٤٠٨).

ولكنه لا يعرفه، فسأل ربه علامةً على ذلك، فقال: «**يا رَبِ، وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ**»(١).

فهذه هي العلامة: أن يحمل حوتًا في وعاء، فإذا فقَدَه فهو هناك.

فانطلق موسى ومعه فتاه يوشع بن نون في رحلة البحث والعلم، وحَمَلا معهما حُوتًا في مِكْتَلٍ يقتاتان منه، **وقالَ موسى لِفَتاهُ: لا أُكَلِّفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي حَيْثُ يُفارِقُكَ الْحُوت، قالَ: ما كَلَّفْتَ كَثِيرًا، فَسارا حَتَّى وَصلا عِنْدَ صَخْرَة وَضَعا رُءُوسَهُما وَناما، فاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ،** ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: ٦١]، **وَكانَ لِمُوسَى وَفَتاهُ عَجَبًا**(٢).

وفي رواية للبخاري أن النبي ﷺ قال: «**وَفِي أَصْلِ الصَّخْرَةِ عَيْنٌ يُقالُ لَها «الحَياةُ»، لا يُصِيبُ مِنْ مائِها شَيْءٌ إِلَّا حَيِيَ، فَأَصابَ الحُوتَ مِنْ ماءِ تِلْكَ العَيْنِ. قالَ: فَتَحَرَّكَ وانْسَلَّ مِنَ المِكْتَلِ، فَدَخَلَ البَحْرَ**»(٣).

وهاتان آيتان عظيمتان:

(١) أن هذا الحوت كان ميِّتًا يقتاتان منه، ثم بعث اللهُ فيه الحياة.

(٢) أن هذا الحوت صار طريقه في البحر سربًا، أي: كالسرداب لا يلتئم الماء عليه.

قال رسول الله ﷺ: «**فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ الماءِ، فَصارَ مِثْلَ الطَّاقِ**»(٤)، أي: فصار كالنفق في الماء.

---

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري»، حديث رقم (٤٧٢٦).

(٣) أخرجها البخاري في صحيحه (٤٧٢٧).

(٤) جزء من حديث **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠).

واطلع الفتى على ما جرى للحوت ونسي أن يخبر موسى بذلك[1]، فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، فلما أصبح قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف:٦٢]، أي تعبًا. قال رسول الله ﷺ: «**وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جاوَزَ الْمَكانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ**»[2]، فقال له فتاهُ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [الكهف:٦٣]، قالَ موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الكهف:٦٤]، أي هذا ما كنا نريده، ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:٦٤]، فرجعا يتتبَّعان آثار أقدامهما؛ لئلا يضيعا عن الطريق حتى انتهيا إلى الصخرة.

الحلقة الثانية: بعد اللقاء.

لما وصل موسى وفتاه إلى الصخرة التي فقدا عندها الحوت، وجدا الخضر هناك قد تغطى بثوبه، «**فَسَلَّمَ مُوسَى، فَقالَ الخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلامُ؟**»[3]، أي كيف يصدر السلام في هذه الأرض؟ وهذا تعجُّب.

قال العلماء: «وكأنها كانت بلاد كفر، أو كانت تحيتهم بغير السلام»[4].

فائدة: فيه دليل على أن الأنبياء ومن دونهم لا يعلمون من الغيب إلا ما عَلَّمهم الله؛ إذ لو كان الخضر يعلم كل غيب لعرف موسى قبل أن يسأله[5].

---

(١) في البخاري (٤٧٢٦): «فَقَالَ فَتَاهُ: لَا أُوقِظُهُ، حَتَّى إِذَا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ أَنْ يُخْبِرَهُ ...».

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٢٢)، واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

(٣) جزء من الحديث السابق.

(٤) قاله الحافظ في «الفتح» (١/ ٢٢٠).

(٥) السابق نفسه.

فقال موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:٦٦]، قال الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف:٦٧-٦٨]، ثم قال: «يا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لا أَعْلَمُهُ»(١).

فتشجع موسى وقويت رغبته، وقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف:٦٩].

فقال الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف:٧٠].

وبدأت رحلة المصاحبة، وجرى فيها ثلاثة أحداث رئيسة:

- **الحدث الأول: خرق السفينة.**

انطلَق موسى والخضر «يَمْشِيانِ عَلَى ساحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُما سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِما سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُما، فَعُرِفَ الْخَضِرُ، فَحَمَلُوهُما بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقالَ الْخَضِرُ: يا مُوسَى، ما نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ!

فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْواحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقالَ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها؟ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف:٧٢-٧٣]، فَكانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيانًا»(٢).

---

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) جزء من الحديث السابق.

- **الحدث الثاني: قتل الغلام.**

ثم انطلقا «**فَإِذَا غُلَامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلاهُ فاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ**»(١)، فقال موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤] ، فقال الخضِر: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥]، فاستحيا موسى، وقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦].

- **الحدث الثالث: إقامة الجدار.**

ثم انطلقا في المسير وقد بلغ بهم الجهد، فأتيا أهل قرية لئامًا(٢)،فطافا في المجالس فاستطعما أهلها، فلم يضيفوهما، فوجدا فيها جدارا مائلا، فمَسَحَه الخضر بيده فاستقام.

فقال له موسى: قوم استطعمناهم فأبوا أن يطعمونا، واستضفناهم فأبوا أن يضيفونا عمدت إلى حائطهم، فأقمته!، لو اتخذت على عملك هذا أجرًا نأكل منه.

فقال الخضر: هذا فراق بيني وبينك، فحسم الأمر، وأنهى الصحبة(٣).

قال رسول الله ﷺ: «**يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، لَوَدِدْنا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنا مِنْ أَمْرِهِما**»(٤).

---

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) ذكر ابن حجر في الفتح (٨/٢٧٣) أقوالا في تعيين هذه القرية، ثم قال: «وهذا الاختلاف قريب من الاختلاف في المراد بمجمع البحرين، وشدة المباينة في ذلك تقتضي أن لا يوثق بشيء من ذلك».

(٣) ينظر: صحيح البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٤) جزء من الحديث السابق.

ثم أراد الخضر أن يبين الأمر، فقال لموسى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨].

فبدأ الخضر في بيان دوافع أفعاله التي أنكرها موسى، فقال:

أما السفينة: فكانت لمساكين يعملون في البحر وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا وكرها، فإذا كانت السفينةُ معيبةً فإنه يتركها. فكانت المصلحة في خرق السفينة لتسلم وتبقى لأصحابها المساكين، فإذا جاوزوا الملك الظالم أصلحوها ورقعوها بخشبة.

وأما الغلام: فإنه طُبع كافرا، وكان أبواه مؤمنين، وكانا يحبانه ويعطفان عليه، ولو عاش الغلام وأدرك لأرهق أبويه طغيانا وكفرًا بسبب قوة محبتهما له، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرًا منه صلاحا ودينا، وأقرب رُحْما، أي: رحمة وبرا بهما.

جاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال في أبوي الغلام: «أَبدَلهما جاريةً، فولدت نبيًّا من الأنبياء»[(١)].

وأما الجدار الذي أصلحتُه وأقمته: فكان لغلامين يتيمين في المدينةِ، وكان تحت الحائط كنز لهما، وكان أبوهما صالحا[(٢)]، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك؛ لأنه لو تُرك الحائط وسقط، لانكشف الكنز، وتعرض للسرقة والضياع، لأنهما صغيران، فكان من رحمة الله بهما أن سخر لهما الخضر لحفظ كنزهما.

ذلك يا موسى تأويل ما لم تسطع عليه صبرًا.

---

(١) «تفسير الثعلبي» (٦/ ١٨٧).

(٢) قال ابن جُزي رَحِمَهُٱللَّهُ في تفسيره (١/ ٤٧٣): «قيل: إنه الأب السابع. وظاهر اللفظ أنه الأقرب».

الوقفة الثالثة: الفوائد والعبر.

(١) فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، والهمة في ذلك.

ومأخذ هذه الفائدة: أنَّ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وصبر على ذلك في سبيل تحصيل العلم، وقطع على نفسه أن يسير إلى أن يلقاه ولو مكث زمنا طويلا في المسير.

قال قتادة: «لو كان أحدٌ يكتفي من العلم بشيء، لاكتفى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولكنَّه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]»[(١)].

(٢) جواز اتخاذ الخادم في الحضر والسفر؛ لكفاية المؤن، وطلب الراحة، كما فعل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

(٣) التأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدم إضافة المكروهات إليه، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره.

ومأخذ هذه الفائدة قول فتى موسى - عليهما السلام -: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]، وقول الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، حيث أضاف عَيْب السفينة إلى نفسه. أما الخير: فأضافه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

وما أحسنَ قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤١٨).

(٤) جواز إخبار الإنسان بما يصاب به، من نصب أو ألم، أو جوع، أو عطش، إذا كان صدقا، ولم يكن على وجه التسخط.

ومأخذها من قول موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢][(١)].

(٥) التأدب مع المُعَلِّم، وانتقاء أحسن الألفاظ في مخاطبته.

ومأخذها من قول موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، قال هذا وهو أفضل من الخضر، لكن رغبةً فيما عنده من العلم.

وذكر أبو شامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعض المتقدمين أنه كان إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء، وقال: «اللّٰهم استر عيب مُعَلِّمي عني، ولا تُذهِب بركة علمه مني»[(٢)].

(٦) التواضع في طلب العلم.

وقد ظهر هذا جليًّا في هذه القصة، حيث سار موسى على علوِّ منزلته، وأفضليته، إلى الخضر؛ طلبًا لما عنده من العلم. قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يتعلَّم العلم مستحيٍ، ولا مُستكبِر»[(٣)].

- **تنبيه: أخطأ بعض الناس فظن أن الخضِر أفضل من موسى؛ لما وقع في القصة من اتباع موسى إياه، وهذا خطأ كبير.**

---

(١) فصَّلتُ الكلام على حكم الشكوى للمخلوق عند المصيبة في «شرح كتاب التوحيد»، في باب «من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله».

(٢) «إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص: ٧٦٩).

(٣) أخرجه الدارمي في سننه (٥٧٠)، بنحوه، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٤١٠)، وعلقه البخاري مجزوما به في «باب الحياء في العلم» (١/ ٣٨).

فموسى أفضل من الخضر، وأعلى قدرًا ومنزلة، وهو رسول الله بل من أولي العزم المصطفين، والخضر ليس برسول، بل هو نبي مُخْتَلَفٌ في نبوته، والأقرب أنه نبي كما سبق. وهو أحد أنبياء بني إسرائيل الداخلين في شريعة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

(٧) الحرص على العلم النافع المرشد لكل خير.

ومأخذها من قول موسى للخضر – عليهما السلام –: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، فعلى العبد أن يسعى لتعلُّم كل ما ينفعه ويرشدُه إلى الخير، ويحذَر من العلم الضار، أو الذي لا نفع فيه.

(٨) الصبر في طريق العلم، فإنه يحتاج إلى صبر ومصابرة:

صبر على التحصيل، وصبر على ملازمة مجالس العلم، وصبر على جفاء بعض الشيوخ.

ومن ليس له قوَّة الصبر على صحبة العالم والعلم، وحُسن الثبات على ذلك، فإنه يفوتُه كثيرٌ من العلم بحسب عدم صبره.

(٩) تربية النفس على التأني والتثبُّت، وعدم التعجل في الحكم على الأمور بالنظر إلى ظواهرها.

وقد أجيب عما فعله الخضر.

أما عيب السفينة: فكان لمصلحة أعظم، وهي حفظ السفينة من استيلاء الملك، فإذا جاوزوه أُصلِحت وأُعِيدت، كما كانت.

وأما قتله الغلام: فلعله كان في تلك الشريعة، وقد كان بوحي.

وأما إقامة الجدار: فمن باب مقابلة الإساءة بالإحسان، وهو من مكارم الأخلاق.

(١٠) تعليق الأمور المستقبلية على مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومأخذها من قول موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

وسبق الكلام على ذلك عند قول الله – تعالى –: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

(١١) الشيطان يسعى في نسيان العبدِ الخيرَ.

حَكى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا قول فتى موسى – عليهما السلام –: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]، وقال – تعالى –: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال – سبحانه –: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقال – جلَّ ذِكرُه –: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩].

فعلى العبد أن يتعوذ بالله من الشيطان.

(١٢) جواز ركوب البحر، والعمَل فيه، في غير الحالة التي يخاف منها.

ومأخذها من قول الله – تعالى –: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩].

(١٣) ارتكاب المفسدة الصغرى في سبيل دفع المفسدة الكبرى.

وهذه القاعدة يُحتاج إليها عند تزاحم المفاسد، والإلجاء إلى ارتكاب بعضها.

ومأخذها: خرق السفينة مفسدة، لكن تركها واستيلاء الملك عليها مفسدة أعظم.

وقتل الغلام مفسدة، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظم.

(١٤) أن المسكين أحسن حالًا من الفقير.

وهذا إذا اجتمع ذكرُهما في سياق واحد، ووجه ذلك قوله - تعالى - ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، فأثبت لهم ملكية المال الذي ينتفع به ويدر غلة على صاحبه.

وضبط بعض الفقهاء المسكين بأنه من يجد أكثر من نصف حاجته دون تمامها.

والفقير من لا يجد شيئا، أو يجد دون النصف.

(١٥) بركة الصلاح والطاعة.

ومأخذها من قول الله - تعالى -: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]. فهذا العبد الصالح حفظه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذريته، ويسر له من يقوم على مصالحهم.

قال محمد بن المنكدر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله يحفظ بصلاح العبد ولدَه وولدَ ولدِه، وأهلَ دوياراتٍ حوله، فلا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم»[(١)].

(١٦) الموافقة بين الأصحاب سبب لدوام الصحبة والألفة، والمخالفة سبب لانقطاعها.

وهذا في غير المحظور.

(١٧) تلمُّح المنح في طيات المحن.

فكم مما يقدره الله لك أو لغيرك تراه - بادئ الأمر - شرا وسوءا، لكن تعود عاقبته خيرا ونفعا. قال الله - تعالى -: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

---

(١) «الزهد»، لابن المبارك (ص: ١١١).

وهذا ظاهر مما جرى بين موسى والخضر في قصة السفينة والغلام.

فإن أصابك أذى أو ضرر أو ظلم فاصبر، وقوِّ قلبَك، وتلمَّح المنح في طيات المحن.

(١٨) الزيادة في المبنى تدُلُّ على زيادة في المعنى.

قال الله - تعالى -: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨]، ثم أخبره، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

الشاهد هنا الفعلان: (تَسْتَطِعْ) و(تَسْطِعْ) بالتاء وحذفها، وهما بمعنى واحد.

وذكر بعض المفسرين أن الفائدة من هذا التغاير أمران:

الأول: فائدة لفظية، وهي عدم تكرر الكلمة بلفظها؛ فإن ذلك معيب عند الفصحاء.

والثاني: فائدة معنوية، وهي أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فزيادة حرف (التاء) في إحدى الكلمتين تدل على أن الاستطاعة فيها أشد من الأخرى.

ففي الموضع الأول قال الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨]، فالاستطاعة هنا أشد لأن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن يعلم سبب أفعال الخضر التي أنكرها، فهو في هم وثِقَل وشوق.

فلما أخبره بذلك قال: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]؛ لأن الأمر هنا صار أخف بعد تجلية الأمر واتضاحه.

وهذه الفائدة تقال - أيضا - فيما يأتي من قصة ذي القرنين، عند قوله - تعالى -: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧].

(١٩) حقيقة «العلم اللَّدُنِّي».

هذا المصطلح زلت فيه أقدام، وضلت فيه أفهام!

والخلاصة فيه أن يقال:

العلم الذي يحصل للعبد نوعان:

الأول: علم مكتسب، يدركه العبد بجِدِّه واجتهاده من خلال شيخ أو كتاب ونحو ذلك، بعد توفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعونه له.

والثاني: علم لَدُنِّي، وهو العلم الذي يمُنُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به على من يشاء من عباده من فتوحات وإشراقات من غير شيخ ولا كتاب، كما قال - تعالى - عن الخضر: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وكما قال عن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فألقى الله - تعالى - فهم القضية على سليمان دون داود - عليهما السلام -.

وسأل أبو جُحَيْفَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال: «هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الوَحْيِ إِلَّا ما فِي كِتابِ اللَّهِ؟ قالَ: «لا والَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، ما أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي القُرْآنِ، وَما فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ» ...، الحديث[1].

فهذا هو العلم اللَّدُنِّي المعتبر، وكلما كان العبد محقِّقًا للعبودية والصدق والإخلاص والمتابعة = فتح الله عليه من فتوح العلم، قال - تعالى -: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما العلم اللَّدُنِّي: فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين - بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتباعهم ما يحِبُّه - ما لا يفتح به على غيرهم»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٠٤٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٤٥).

• **ولا بد في هذا العلم اللَّدُنِّي من ضابط مهم: وهو أن يُعرض على الوحي (الكتاب والسنة): فإن خالَف ما تقرَّر فيهما = لم يُقبَل.**

وقد زلَّت طوائف من الصوفية من هذا الباب، وضخَّموا (العلم اللدنِّي) الذي يفيضه اللهُ على الولي مباشرة، وقرروا أن الدين قسمان: حقيقة، وشريعة، وأنَّ النبي ﷺ بَلَّغَ الشريعة، ولم يُبَلِّغ الحقيقة! وأن نصوص الكتاب والسنة للعامة، والعلم اللَّدُنِّي للخاصة!

وقرَّرُوا أن هذا العلم اللَّدُنِّي (الإلهام) أعلى من الوحي؛ لأن الوحي بواسطة الملَك والرسول، أما الإلهام فهو من الله للوليِّ مباشرة! حتى قال بعضُهم: حدَّثني قلبي عن ربي[1]!.

ومرَّ أحدهم بمجلس من مجالس الحديث، والطالب يقرأ: حدثنا عبد الرزاق، فقال: أنتم تأخذون دينكم عن عبدالرزاق، وأنا آخذه من الرزاق!

ولا شكَّ في ضلال هؤلاء وانحرافهم.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا عِلْم من أعرض عن الكتاب والسنة، ولم يتقيد بهما: فهو من لدُن النفس والهوى والشيطان، فهو لدنِّي، لكن من لدُن مَنْ؟! وإنما يُعرف كون العلم لدُنِّيًّا رحمانيًّا بموافقته لما جاء به الرسول ﷺ عن ربِّه - عز وجل -»[2].

(١) ينظر: «تلبيس إبليس» (ص: ٣٢٩)، و«فضائح الصوفية» (ص: ٣٢).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٦).

المقطع السادس

من قول الله – تعالى –: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]، إلى قوله – جَلَّ ذِكرُه –: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

والكلام عليه في الوقفات الآتية:

الوقفة الأولى: قصة ذي القرنين.

ذو القرنين ملك صالح من ملوك الأرض، طاف الأرض لنشر دين الله وإقامة العدل، ونصرة المظلوم، وكان في زمن إبراهيم الخليل ﷺ.

قيل: إنه نبي، وقيل: مَلَك من الملائكة، والأظهر – وعليه الأكثر – أنه مَلِكٌ من الملوك. قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَلَك الأرض – مشرقَها ومغربَها – أربعةُ نفر: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين، والكافران: بختنصر ونمرود بن كنعان، لم يملكها غيرهم»(١).

وذكر الأزرقي وغيرُه أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل ﷺ، وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ(٢)، والله أعلم.

وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه مكَّن له في الأرض، ومن أعظم التمكين أنه مَلَك الدنيا، ودانت له الملوك كلها. وأعطاه قوة وقدرة في التصرف. قال – تعالى –: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]، والسبب: ما يتوصل به إلى

(١) «تفسير الطبري» (٤/ ٥٧١).

(٢) ينظر: «أخبار مكة» (١/ ٧٤).

المقصود. فأعطاه الله وسيلة إلى الأشياء مِن: عِلم، أو قدرة، أو آلة، ونحو ذلك، فمُكِّن وأُيِّد بأسباب عظيمة كثيرة.

وزعم بعضهم أنه: الإسكندر المقدوني باني الإسكندرية، وهذا غير صحيح، كما حقَّقه أهل العلم - كابن تيمية وابن القيم وابن حجر - من وجوه[1]:

(١) ذو القرنين كان في زمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والإسكندر في زمن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبينهما أكثر من ألفي سنة.

(٢) ذو القرنين كان مسلما، والإسكندر كان كافرا.

(٣) كان ذو القرنين من العرب، وأما الإسكندر فهو من اليونان.

وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ طرفًا من أخباره هنا في ثلاثة أحداث:

- **الحدث الأول: عند مغرب الشمس.**

قال الله - تعالى -: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٥-٨٨].

يخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ ذا القرنين سلك طريقًا أوصله إلى أقصى جهة المغرب على حافة البحر، فرأى الشمس كأنها تغرب في عين حارة ذات طين أسود - وهذا بحسب منظرِه، وليس في حقيقة الأمر -، ووجد هناك قومًا مستحقين للعذاب، بسبب كفر أو فساد عمل، فقيل له: إما أن تُعَذِّب هؤلاء بالقتل أو بغيره، وإما أن تُحْسِن إليهم.

---

(١) ينظر: «جامع المسائل»، لابن تيمية (ص: ٢٨٦)، و«إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان»، لابن القيم (٢/ ١٠٢٧)، و«فتح الباري»، لابن حجر (٦/ ٣٨٢).

قال ذو القرنين: أمَّا من أشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأصرَّ بعد دعوته إلى عبادة الله؛ فسوف نعذبه في الدنيا، ثم يرجع إلى ربِّه يوم القيامة، فيعذبه عذابا عظيما في نار جهنم.

والإتيان بحرف الاستقبال في قوله - تعالى -: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾، يشير إلى أنه سيدعوه إلى الإيمان أوَّلا، فإن أصرَّ على الكفر عذَّبه.

وأما من آمن منهم بالله وعمل عملا صالحا فله الجنة؛ جزاءً على حسن عمله، وسنقول له من أمرنا ما فيه رفق ولين.

وبهذا الحوار المختصر بينه وبين أولئك القوم انتهى الحدث الأول.

- **الحدث الثاني: عند مطلع الشمس.**

قال الله - تعالى -: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٨٩-٩١].

يخبر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنَّ ذا القرنين سلك طريقا مغايرة إلى جهة الشرق حتى وصل أقصى الشرق وانقطع العمران، فأصبح كأنه في المكان الذي تطلع منه الشمس. ولما وصله وجَدَ الشمس تطلع على قوم ليس لهم بناء يستُرهم، ولا شجر يظلهم من الشمس.

ولم يذكر الله خبرا مما جرى له هناك، لكنه بيَّن أن عِلْم الله قد أحاط بتفاصيل ما لديه من القوة والسلطان والأسباب العظيمة حيثما حل وارتحل.

- **الحدث الثالث: بين السدين.**

قال الله - تعالى -: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى

خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٢-٩٨].

ثم سار ذو القرنين طريقا آخر بين المشرق والمغرب إلى جهة الشمال، حتى وصل إلى جبلين بينهما ثغرة، وجد من دونهما قوما لا يكادون يَفهمون كلام غيرهم.

وفي قراءة متواترة: ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يُفْقِهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣]، أي: لا يُفهِمون غيرَهم كلامَهم.

لكنَّ ذا القرنين صاحبُ مُلك عظيم، فأقدره الله على التفاهم معهم إما بنفسه أو بمترجمين، وقال بعضهم: ربما تفاهم معهم بلغة الإشارة، والله أعلم(١).

ولما رأى أولئك القوم علامات القوة والصلاح فيه سألوه حاجتهم، فقالوا: يا ذا القرنين، إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض - بما يقومون به من القتل والتخريب وغيرهما -، فهل نجعل لك مالا على أن تجعل بيننا وبينهم حاجزا؟

فقال ذو القرنين: ما رزقنيه ربي من الملك والسلطان خير لي مما تعطونني من مال، فأعينوني برجال وآلات أجعل بينكم وبينهم حاجزا.

ثم بدأ التخطيطَ والعملَ لهذا المشروع العظيم.

قال لهم: أحْضِروا قِطَع الحديد، فأحضَروها، فطفِق يبني بها ويصُفُّها بين الجبلين، حتى إذا ساوى بين الجبلين ببنائه، وسَدَّ الثغرة بهذا البناء العظيم = قال للعُمَّال: أشعلوا النار على هذه القطع، حتى إذا احمرت قِطعُ الحديد، قال: أحضِروا نُحاسًا مذابا، فصبَّه

(١) ينظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٣١٩).

عليه، فاستحكم السَّدُّ بهذا الحديد الصُّلب الذي أُلبِس بالنُّحاس المذاب، فصار في غاية المتانة والصلابة.

فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلُوا عليه؛ لارتفاعه وملاسته، وما استطاعوا أن يثقُبُوه من أسفله لصلابته وعرضِه.

فردَّ ذو القرنين النعمةَ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقال: هذا السدُّ رحمةٌ من ربي يحول به بين يأجوج ومأجوج والإفساد في الأرض، ويمنعهم منه، فإذا جاء الوقت الذي حدَّده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لخروجهم - قُبيل قيام الساعة - صيَّره مستويًا بالأرض، وكان وعد الله - بتسويته بالأرض، وبخروج يأجوج ومأجوج - ثابتًا لا خُلْف فيه.

وهكذا أطبق عليهم ذو القرنين في سجن محكم، وسد منيع، وأراح الأرضَ وأهلَها من شرِّهم وفسادهم، ولا يزالون كذلك إلى يومنا هذا، وإلى أجل معلوم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يُعرف على وجه الأرض بناءٌ أجَلُّ منه، ولا أنفعُ للخلق منه في أمر دنياهم»[1].

ولعلي أشير هنا إلى مسألتين:

الأولى: مَن هم يأجوج ومأجوج؟

يأجوج ومأجوج قبيلتان عظيمتان كافرتان من ذرية آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[2]، تعيشان في الجهة الشرقية من الأرض. وهم أصحاب قوة وهمجية وإفساد، مع كثرة كاثرة في العدد.

ولا نعلم خبرا صحيحا في صفاتهم الخَلقية على وجه التحديد.

---

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ١١١).

(٢) نص الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «البداية والنهاية» (١٩/ ٢٣٨) أنهم من الترك، وقال (٢٣٩/١٩): «وهم من ذريَّة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، من سلالة يافث بن نوح، وهو أبو الترك».

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من زعم أنهم أشكال مختلفة وأطوال متباينة جدًّا، فمنهم من هو كالنخلة السحوق، ومنهم من هو غاية في القصر، ومنهم من يفترش أُذنًا من أُذنيه ويتغطى بالأخرى = فكُلُّ هذه أقوال بلا دليل، ورجم بالغيب بغير برهان، والصحيح أنهم من بني آدم وعلى أشكالهم»(١).

الشاهد أنهم موجودون، والسدُّ حقيقةٌ لا خيال، وهم يحاولون نقبه كل يوم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ: أَنَّهُ قالَ فِي السَّدِّ: «**يَحْفِرُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إذا كادُوا يَخْرِقُونَهُ قالَ الَّذِي عَلَيْهِمُ: ارْجِعُوا، فَسَتَخْرِقُونَهُ غَدًا، فَيُعِيدُهُ اللهُ كَأَشَدِّ ما كانَ. حَتَّى إذا بَلَغَ مُدَّتَهُمْ، وَأَرادَ اللهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ، قالَ الَّذِي عَلَيْهِمُ: ارْجِعُوا، فَسَتَخْرِقُونَهُ غَدًا إنْ شاءَ اللهُ، واسْتَثْنَى - أي قال: إن شاء الله - قالَ: فَيَرْجِعُونَ، فَيَجِدُونَهُ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ، فَيَخْرِقُونَهُ، فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ**»(٢).

وحدث في عهد النبي ﷺ أمرٌ مثير يتعلق بهذا السد العظيم، وهو ما أخبرت به أمُّ المؤمنين زينبُ بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: دَخَلَ عليَّ النَّبِيُّ ﷺ فَزِعًا يَقُولُ: «**لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ**»، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهامِ والَّتِي تَلِيها، قالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينا الصَّالِحُونَ؟ قالَ: «**نَعَمْ، إذا كَثُرَ الخَبَثُ**»(٣).

---

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ١٣٠).

(٢) **صحيح:** أخرجه الترمذي (٣١٥٣)، وابن ماجه (٤٠٨٠)، وصححه الألباني.

(٣) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

الثانية: الخروج العظيم.

يخرج الدَّجَّال في آخر الزمان، وفتنته من أعظم الفتن، ويمكث في الأرض أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كأسبوع ، وسائر أيامه كأيام الناس هذه.

ويكون هلاكه على يد عيسى بن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وخروج الدجال ونزول عيسى ابنُ مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أشراط الساعة الكبرى.

وبعد هلاك الدجال، يأذنُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحدث عظيم، وخطبٍ جسيم، حيث يندَكُّ السدُّ المنيعُ الذي بناه ذو القرنين، ويخرج يأجوجُ ومأجوج بعد سجن طويل.

وخروجهم علامة ثالثة من علامات الساعة الكبرى.

فيسيحون في الأرض وهم كثرة كاثرة، حيث يمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء.

وتكون أحداثٌ، حتى يدعو عيسى ربَّه، فيستجيبُ له، ويصبحون موتى، لا يبقى منهم أحد، وعند ذلك يتفرغ عيسى للمهمة الكبرى التي أنزل من أجلها، وهي تحكيم شريعة الإسلام، فتحلُّ البركاتُ في الأرض[1].

وخروج يأجوج ومأجوج حقيقةٌ قرآنية، ومعجزةٌ نبوية، ليس روايةً خيالية، ولا مجملةً فلسفية، بل هو حدثٌ عظيم يكون عند قرب قيام الساعة.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٩٣٧).

وبحيرة طبرية بحيرة عذبة المياه تقع في شمال فلسطين بين منطقة الجليل وهضبة الجولان، ويبلغ طولها واحدا وعشرين كيلو مترا، وأقصى عرض لها ثلاثة عشر كيلو مترا، وتبلغ مساحتها ستة وستين ومئة كيلو مترامربعا تقريبا. ينظر: «موسوعة ويكيبديا»، على الشبكة العنكبوتية.

ولا يقدح في إيماننا بذلك ما يقال: أين هم الآن؟ وأين سدُّهُم؟ فإنَّ من أخص صفات المؤمنِ: الإيمانَ بالغيب .. والإنسانُ مهما ارتفعَ بعلمه يظلُّ ناقصا وقاصرا بقصوره البشري، ونحن نشهد اليوم هذا القصور، حيث تستمرُّ الاكتشافاتُ الأرضية الجديدة، ويتعرفُ العلماء على ما لم يشهدوه من قبل، بل ما يزال جزء من الأرض غامضا محيِّرا، في أجزاءٍ من القطبين، وأعماق المحيطات، وتُفقَد الطائرات والسفن في البحار والمحيطات ولا يعثرون لها على أثر، رغم التقدم التقني، وبذلهم الجهودَ المضنية في هذا السبيل، الأمر الذي يؤكد لك العجز البشري مهما بلغ من العلم والفهم.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما أخفى مكانهم عن الناس إلا لحكمة أرادها.

الفائدة المسلكية هنا: فضيلة الملك الصالح، والسعيُ في دحر المفسدين وكف شرهم، والأخذُ بالأسباب المادية والعملُ بجِد، مع رد النعمة إلى مُسدِيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الوقفة الثانية: عرض جهنم.

قال الله – تعالى –: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعًا ٩٩ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ [الكهف:٩٩-١٠٠].

وهذا مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة، وعرصات المحشر، حين تبرز جهنم للكافرين، فيشرِفُون عليها ويعلمون أنها مُعَدَّة لهم، فيحصل لهم عند مشاهدتها من الفزع والروع ما لا يوصف. قال – تعالى –: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ [الشعراء:٩١]، وقال – سبحانه –: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات:٣٦]، وقال – جلَّ ذِكرُه –: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر٢٢: ٢٣].

وقال - تعالى -: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عُلِم من هذه الآيات: أن النار تُعرَضُ عليهم ويُعرَضُون عليها؛ لأنها تُقَرَّبُ إليهم ويُقَرَّبُون إليها»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمامٍ، مَعَ كُلِّ زِمامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**»(٢).

وهذا مشهد من مشاهد الحشر، كما قال - تعالى -: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

وسبق الكلام على الحشر وما يتصل به من مشاهد يوم القيامة.

وينبغي التفريق بين العرض على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعرضِ جهنم.

فالعرض على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: هو عرض العباد على ربهم في موقف الفصل والقضاء لا تخفى منهم خافية.

وعرضُ جهنم سبق بيانه، وكلاهما يكونان بعد الحشر إلى أرض الموقف.

وعن عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ما مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلا يَرَى إِلَّا ما قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلا يَرَى إِلَّا ما قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقاءَ وَجْهِهِ، فاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»(٣).

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٣٤٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٤٢).

(٣) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦).

الوقفة الثالثة: نفي السمع والبصر.

قال الله – تعالى –: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

وهذا وصف للكافرين بأنَّ أعيُنَهم كانت مُغَطَّاةً محجوبة عن النظر في آيات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكانوا لا يطيقون سماع آيات الله جَلَّجَلَالُهُ سماعَ منتفع، وذلك للختم والغشاوة، قال الله – تعالى –: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ [البقرة: ٧].

ونظير هذا قوله – تعالى –: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وقوله – سبحانه –: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

- **اعلم أن البصر في القرآن يأتي على معنيين:**

الأول: بصر حقيقي (بصر العين).

ومعناه: إدراك الأشياء المحسوسة بواسطة العين.

كما في قوله – تعالى –: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا﴾ [يوسف: ٩٦]، وقال – سبحانه –: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

والثاني: بصر معنوي (بصر القلب).

ومنه قول الله – تعالى –: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ويُسمَّى: البصيرة، ويراد بها: قوة في القلب تُدْرَك بها المعقولات على حقيقتها.

ويصاب البصر بالطبع والغشاوة، قال - تعالى -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [النحل:١٠٨]، وقال - سبحانه -: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة:٧].

والطبع والغشاوة والختم عقوبات لهؤلاء المكذبين بسبب إصرارهم وعنادهم وتماديهم في الكفر، فتذهب البصائر، وتفقد الأبصار ثمرتها وفائدتها.

قلت: وتحتمل الآية المعنيين جميعا؛ البصر الحقيقي والمعنوي، فقوله - تعالى -: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ [الكهف:١٠١]، أي: كانت أعيُنهم في غطاء عن البصر الحقيقي النافع في آيات الله الكونية، وأدلة توحيده. وكانت أعيُن قلوبهم في غطاء عن آيات الله الشرعية، فلا تفهمها وتهتدي بها.

- **واعلم أن السمع في القرآن يأتي على معنيين - أيضا -:**

الأول: سمع حقيقي (سمع الأذن).

وهو إدراك الأصوات بواسطة الأذن.

ومنه قول الله - تعالى -: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢].

والثاني: سمع معنوي (سماع القلب).

ومنه قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف:١٧٩]، وهذه الآية: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف:١٠١].

واجتمع المعنيان في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١]، أي: ولا تكونوا - أيها المؤمنون- مثل المنافقين والمشركين الذين

إذا تُلِيت عليهم آياتُ الله = قالوا: سمعنا بآذاننا، وهم لا يسمعون سماع تدبر واتعاظ، فينتفعوا بما سمعوه.

الفائدة المسلكية هنا: أن نُعمِل هذه الحواس (السمع والبصر) فيما يريده ربنا منها: سماع العظة والاعتبار، ونظر الاعتبار والتفكر، اللذين يثمران زيادة الإيمان واليقين.

الوقفة الرابعة: كلمات الله.

قال الله – تعالى –: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف:١٠٩].

وكلمات الله نوعان:

الأولى: الكلمات الكونية.

وهذه الكلمات الكونية القدرية، هي الكلمات التي يدبِّر الله – تعالى – بها أمرَ الخلائق، والتي ذكرها – عز وجل – في قوله: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠].

قال أَبُو التَّيَّاحِ: سأل رجل عبد الرحمن بن خَنْبَشٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كَيْفَ صَنَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ كادَتْهُ الشَّياطِينُ؟ قالَ: جاءَتِ الشَّياطِينُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْأَوْدِيَةِ، وَتَحَدَّرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الجِبال، وَفِيهِمْ شَيْطانٌ مَعَهُ شُعْلَةُ نارٍ يُرِيدُ أَنْ يَحْرِقَ بِها رَسُولَ اللهِ ﷺ، قالَ: وَجاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فَقالَ: يا مُحَمَّدُ، قُلْ! قالَ: «**ما أَقُولُ؟**». قالَ: قُلْ: «أَعُوذُ بِكَلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لا يُجاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلا فاجِرٌ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ، وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَمِنْ شَرِّ ما يَعْرُجُ فِيها، وَمِنْ شَرِّ ما ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ وَمِنْ شَرِّ

ما يَخْرُجُ مِنْها، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ والنَّهارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طارِقٍ إلَّا طارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يا رَحْمَنُ». قال: فَطُفِئَتْ نارُ الشَّياطِينِ، وَهَزَمَهُمُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -(١).

فكلمات الله الكونية: هي مقاديرُه وأقضيتُه، وهي نافذة لا يتجاوزها أحدٌ: برًّا كان، أو فاجرا.

والثانية: الكلمات الشرعية.

وهي الوحي الذي أوحاه الله إلى رسله بما شرع لعباده.

وهذه الكلمات الشرعية الدينية قد يتجاوزها الفجار، فيعصون أوامرَ الله، ويرتكبون نواهيَه، التي بينها في كتابه الكريم.

وكلام الله صفة ذاتية فعلية: ذاتية باعتبار أصلها، وفعلية باعتبار آحادها.

وقد ثبت أن الله كلم ثلاثة من أنبيائه ورُسُلِه من وراء حجاب، وهم: آدم، وموسى، ومحمد - عليهم الصلاة والسلام -.

وكلمات الله لا نفاد لها كما دلت الآية: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]، يعني: لو كان ماء البحر حبرًا للأقلام التي يكتب بها كلام الله، لنفِد ماء البحر قبل أن تنفد كلمات الله، ولو جئنا بمثل البحر بِحارا أخرى مددا له. وجاء هذا المعنى - أيضا - في قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧].

---

(١) **حسن:** أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٣٦٠١)، وأحمد (١٥٤٦٠)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩٩٥).

والمعنى: لو أنَّ أشجار الأرض كلها صارت أقلامًا، وصار البحر حِبرًا لها، ويُمَد بسبعة أبحر أخرى، وكُتِب بتلك الأقلام وذلك الحبر كلماتُ الله، لتكسرت تلك الأقلام، ولنفِد ذلك المداد، ولم تنفد كلمات الله التامة التي لا يحيط بها أحد.

الفائدة المسلكية هنا: تعظيم الله، وتعظيم صفاته، ومنها كلامه الذي لا ينفد. وأنْ يوقن العبد أن الملاذ من الشدائد، والأمن من المخاطر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيتوجه إليه بكلماته القدرية الكونية ويعتصم به من كل شر ومخوف. ويتمسك بكلماته الشرعية التي هي شرعه ودينه، ويحرص على تعلُّمِها وفهمها والعمل بها، والدعوة إليها.

وهذا ما تيسر إيراده من وقفات حول هذه السورة العظيمة، ولا شك أن وراءها ما هو أعظم وأكثر .. نسأل الله أن يرزقنا فهم كتابه، والانتفاع به، وهو المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

الفهرس

مقدمـة ..... - ٣ -

لماذا بدأنا بسورة الكهف؟ ..... - ٣ -

المقطع الأول ..... - ٦ -

الوقفة الأولى: الحمد لله ..... - ٦ -

الوقفة الثانية: أوصاف القرآن ..... - ٧ -

الوقفة الثالثة: تنزيه الله عن النقائص ..... - ٧ -

الوقفة الرابعة: العبرة بالعمل دون الأثر ..... - ٨ -

الوقفة الخامسة: التحذير من فتنة الدنيا ..... - ٩ -

الوقفة السادسة: قصة الكهف ..... - ١٠ -

الوقفة السابعة: التدرُّب على تنمية مَلَكة الاستنباط ..... - ١٤ -

الوقفة الثامنة: توجيه الاستدلال بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف: ٢١] ..... - ١٤ -

المقطع الثاني ..... - ١٦ -

الوقفة الأولى: الانشغال بالعلم النافع ..... - ١٦ -

الوقفة الثانية: التحرُّز في الاستفتاء ..... - ١٩ -

الوقفة الثالثة: تعليق الأمور المستقبلة بالمشيئة ..... - ٢٠ -

ثلاث فوائد حول «إن شاء الله» ..... - ٢٣ -

الوقفة الرابعة: الله ولي الذين آمنوا ..... - ٢٤ -

الوقفة الخامسة: القرآن زاد المؤمن ..... - ٢٦ -

الوقفة السادسة: الصحبة الصالحة ..... - ٢٧ -

الوقفة السابعة: الغفلة بوابة الضياع ..... - ٢٨ -

المقطع الثالث ..... - ٣١ -

الوقفة الأولى: طغيان الغنى ..... - ٣١ -

الوقفة الثانية: حقيقة الدنيا ..... - ٣٤ -

ومضات حول هذه الوقفة ..... - ٣٥ -

الوقفة الثالثة: حال الجبال في يوم الأهوال ..... - ٣٩ -

الوقفة الرابعة: الدار الآخرة .. مشاهد وأحداث ..... - ٤١ -

أولا: النفخ في الصور ..... - ٤١ -

ثانيا: البعث ..... - ٤٢ -

ثالثا: الحشر والموقف ..... - ٤٢ -

رابعا: الشفاعة العظمى ..... - ٤٢ -

خامسا: العرض، والحساب، والكتب ..... - ٤٢ -

أحوال الناس في الحساب ..... - ٤٤ -

المقطع الرابع ..... - ٤٦ -

الوقفة الأولى: شذرات في قصة آدم وإبليس ..... - ٤٦ -

المسألة الأولى: من هم الملائكة؟ ..... - ٤٦ -

المسألة الثانية: من هو إبليس؟ ..... - ٤٦ -

المسألة الثالثة: هل إبليس من الجن، أم من الملائكة؟ ..... - ٤٨ -

المسألة الرابعة: حقيقة سجود الملائكة لآدم ..... - ٤٩ -

الوقفة الثانية: الهداية ..... - ٤٩ -
المسألة الأولى: نعمة الهداية..... - ٥٠ -
المسألة الثانية: أقسام الهداية ..... - ٥٠ -
المسألة الثالثة: أسباب الهداية..... - ٥١ -
المسألة الرابعة: موانع الهداية ..... - ٥٣ -
الوقفة الثالثة: الاستهزاء بالدين..... - ٥٥ -
المسألة الأولى: معنى الاستهزاء، وضابطه ..... - ٥٥ -
المسألة الثانية: حكم الاستهزاء بالله ورُسُله ودين الإسلام ..... - ٥٥ -
المسألة الثالثة: واجب المسلم عند سماع الاستهزاء ..... - ٥٦ -
المسألة الرابعة: حكم الاستهزاء بالعلماء وسائر المسلمين..... - ٥٦ -
الوقفة الرابعة: خطر الإعراض عن آيات الله..... - ٥٧ -
المسألة الأولى: معنى الإعراض، ورُودُه في القرآن ..... - ٥٧ -
المسألة الثانية: صور الإعراض..... - ٥٨ -
المسألة الثالثة: أسباب الإعراض ..... - ٦٠ -
المسألة الرابعة: أنواع الإعراض ..... - ٦٠ -
المسألة الخامسة: عقوبة الإعراض..... - ٦١ -
المقطع الخامس ..... - ٦٣ -
الوقفة الأولى: أطراف القصة ..... - ٦٣ -
الوقفة الثانية: أحداث القصة ..... - ٦٦ -
الحلقة الأولى: قبل اللقاء ..... - ٦٦ -

الحلقة الثانية: بعد اللقاء..... - ٦٨ -
- الحدث الأول: خرق السفينة ..... - ٦٩ -
- الحدث الثاني: قتل الغلام..... - ٧٠ -
- الحدث الثالث: إقامة الجدار ..... - ٧٠ -
الوقفة الثالثة: الفوائد والعبر..... - ٧٢ -
- تنبيه: ليس الخضِر بأفضل من موسى - عليهما السلام -..... - ٧٣ -
- ضابط العلم اللَّدُنِّي..... - ٧٩ -
المقطع السادس ..... - ٨٠ -
الوقفة الأولى: قصة ذي القرنين..... - ٨٠ -
- الحدث الأول: عند مغرب الشمس ..... - ٨١ -
- الحدث الثاني: عند مطلع الشمس..... - ٨٢ -
- الحدث الثالث: بين السدين ..... - ٨٢ -
الوقفة الثانية: عرض جهنم..... - ٨٧ -
الوقفة الثالثة: نفي السمع والبصر..... - ٨٩ -
- البصر يأتي في القرآن على معنيين ..... - ٨٩ -
- السمع يأتي في القرآن على معنيين..... - ٩٠ -
الوقفة الرابعة: كلمات الله ..... - ٩١ -
الفهرس..... - ٩٤ -